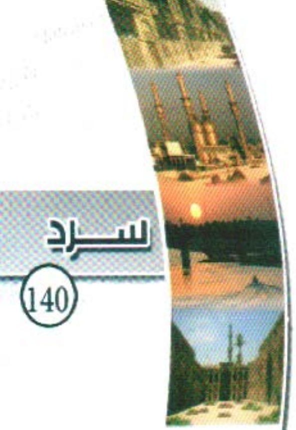
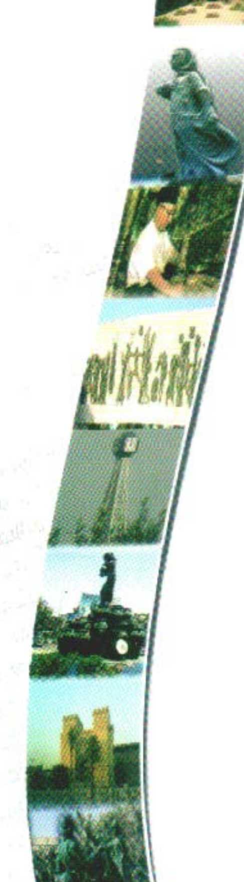
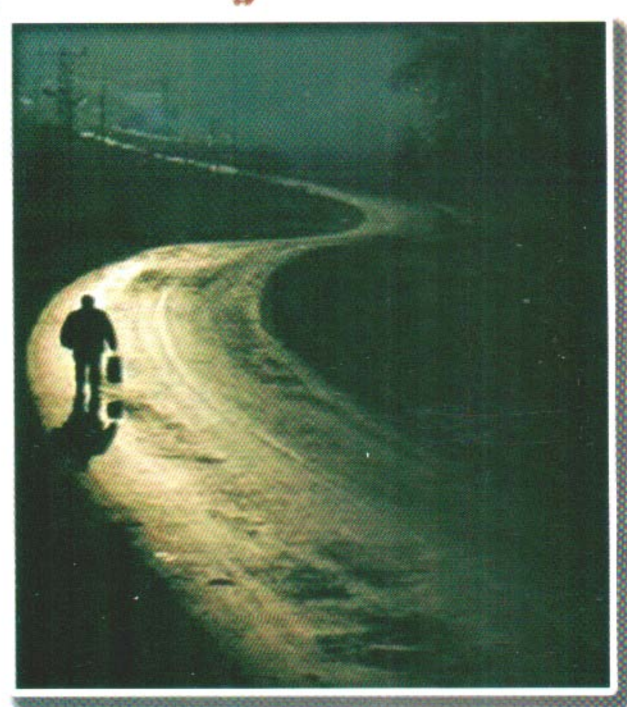




سرد
140

في الذكرى السنوية لرحيلي





ماجد الحيدر

في الذكرى السنوية
لرحيلي

عنوان الكتاب/ في الذكرى السنوية لرحيلي

المؤلف/ ماجد حيدر

الطبعة الأولى - بغداد - ٢٠١٣

الطباعة الالكترونية والتصحيح والاخراج الفني: دار الشؤون الثقافية العامة



العنوان :

وزارة الثقافة - العراق - بغداد - شارع حيفا - هاتف ٥٣٧٣٣٠٧

البريد الالكتروني baghdad ٢٠١٣ @mocul. gov. iq



في الذكرى السنوية لرحيلــي

ماجـد الحيـدر

بغداد . الطبعة الاولى . ٢٠١٣
من اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٣

المقامة الدينارية

قال:

في هذه البادية التي لا اسم لها مرت بنا أيام أقسى من هذه. جعنا، عرينا، بل اضطررنا مرتين أو ثلاثا الى سرقة ما يسد الرمق.. لكننا لم ننخذل،لم ننكسر.. ولم نشعر بالضياع كما في هذه السنين العجاف..

كنا موقنين بأن هناك، في الأرض أو في السماء، من ينظر الينا، من يذرف من أجلنا دمعة أويخرج من صدره آهةً أو من ينظر الينا في دهشة

أو فضول أو رثاء أو احتقار على الأقل... فما بالنا اليوم أُفردنا كبعير معبّد عجوز ذاو السنام؟!

أخبرونا أنها سبع فاحتسبنا وصبرنا. ثم قالوا بل هي ثمان فقلنا لا بأس، إن هي إلا واحدة أخرى. لكنهم عادوا فقالوا أخطأنا في حساب الأبراج فقلنا جل من لا يخطئ. وحين أكملت عشرا ولم تلد سكتوا وما أحاروا رداً. وحين ألححنا عليهم (ونحن كما ترى قوم لجوجون لحوحون مزعجون قليلو صبرٍ وإيمان) نظر بعضهم في وجوه بعض ثم فتحوا كتب الطلاسم وضربوا المندل وكشفوا الزايرجات وقالوا هذا منتهى علمنا، وقالوا إن كلمة "لا أعلم" نصف العلم، وقالوا عليكم بالأولياء والصالحين فمضينا اليهم زرافات ووحداناً..

وفي الطريق رأينا نسوةً كثيرات غطين وجوههن وكشفن صدورهن وسيقانهن وصحن بنا أن هلموا، قد هيئنا لكم.. ليلة كاملة نظير حفنة من طحين!!

كنا نعرفهن من أصواتهن؛ قال واحد تلك زوجي، وقال آخر تلك ابنتي، وبكى ثالث وقال تلك أمي. ومضينا ولم نساوم في البضاعة. وظللنا نسمع من وراء ظهورنا الشتائم على مرمى سهمين.

كان الطريق طويلاً والشمس في السمت لا تبارحه. وفي اليوم السابع صاح روادنا أن ابشروا، قد لاحت القباب المذهبة في الآفاق.. فدسنا على أوجاعنا ونسينا أظفارنا فوق الرمل الساخن وهرولنا صائحين لبيكم لبيكم يا موالينا!

قال:

وكنا كلما ازددنا دنواً كلما فترت هممنا وخف ضجيجنا وخاب فألنا وبانت على الوجوه خيبتنا. وقال عجوز منا إني جئت هذه القباب رضيعا على متن أمي، وجئتها صبيا يردفني أبي على دابته، ورأيتها فتى أختال على مهرتي الكحلاء وكهلاً وخط الشيب لحيتي لكني لم أنكرها مثل انكارها هذه النوبة.

وصاح رجل منا ما هذا ذهبا. فقلنا قد قال حقا.

كانت صفائح التبر فوق القباب وعلى الجدران والبيبان قد أخلت أماكنها لرقائق من نحاس مُزرّق فأدركنا أن ذلك كان في السني الأولى. ثم أن بقعا أخرى كانت مصبوغة بالورس فعرفنا أن ذلك حدث في السني

الوسطى، ورأينا بقعاً طليت على عجل بأصفرَ فاقعٍ شابَهُ الطين فجزمنا أنه من فعل من ظل حياً الى الأمس القريب.

وخرج علينا من المحراب عجوز فانٍ يدب على عصا عوجاء. قال:

- "ما جاء بكم ؟ ألم تعلموا أن القبور غادرها أهلوها ليبحثوا عن الماء في أرضٍ غير هذي ؟ ألم ينبئكم بذلك هذا الصمت المرين؟"

قال قائل منا:

- "بَلا قد والله ربنا أن لا حمام بهذه العراص ولا صبية يركضون خلفها ولا نساء يركضن خلف الصبية يعوّذنهم باسم الله ويقمنهم إذ ينكفئون فيحضنّهم وينفضن عنهم التراب ويفدّينهم"

قال العجوز:

- "فما مقامكم هنا؟"

قلنا:

- "نصلّي ونبيت ليلتنا عند الأضرحة علّنا نرى في المنام ما يفتح الله به علينا"

قال:

- "ويحكم ألا تفهمون!؟ قلت لكم إن القبور صوّحت فلا علمٌ ولا حلم"

قلنا:

- "لا نزول من ها هنا حتى نبيت"

قال:

- "شأنكم فافعلوا ما تريدون فما أظنكم تعقلون!"

ونزلنا وتيممنا الصعيد الطاهر وصلينا ونمنا كأنا حصى يسقط في الماء. وما هي إلا ساعة حتى قمنا وقد امتلأت بطوننا هواءً وأفواهنا رملاً وجلسنا يبشر بعضنا بعضاً بالويل وسوء العاقبة. وقلنا ننقلب الى أهلينا نموت وإياهم في منازلنا فيكون لنا من يدفنا ويبكي علينا.

قال: وحين رجعنا الى الموضع الذي تركنا فيه عيالنا أبصرنا قباباً حمراً وخياماً حسنة وبغالاً فارهة. ورأينا صغارنا يأكلون الموز ويترامون بقشوره وقد لبسوا حللا جديدة ونعالاً.. نعم وأيم الحق! كانوا يلبسون نعالاً!

ودلفنا بين الخيام فرأينا تنانير موقدة وخبزاً طرياً ساخناً فأكلنا قبل السؤال والتسليم ورأينا صبايانا يتضاحكن ويتراشقن بفاحش القول

وقد تحلقن حول حوض من ماء دافق.. نعم والله ماء دافق من عين رقراقة فشربنا وغسلنا جلودنا التي تعطنت و لمنا التي تلبدت ولم ننهرهن ولم نسأل عن شيء.

حتى إذا شبعنا وروينا جلسنا الى نسائنا وساءلناهن عن تبدل الأحوال. فقلن :

- ""بينا نحن جالسات على مفترق طريق القوافل حيث وجدتمونا (وأطرقنا خجلين حين سمعنا ذلك) مرت علينا قافلة باذخة مترفة فقلنا ""من القوم؟" قالوا ""رجال من آل دينار" فقلنا ""هلاً نزلتم بنا وتمتعتم رويدا نظير كسرة من رغيف" قالوا "بَلا والله لنفعلن" فنزلوا وتمتعوا ما شاءت لهم أكياسهم. ثم مضوا سالمين غانمين ووعدونا بالعود الحميد وفعلوا في كل يوم ما فعلوا في اليوم الاول

حتـى اذا صـار اليـوم الخـامس جـاءوا معهـم بقـوم آخـرين وقـالوا "هؤلاء اولاد عمومتنا قدموا معنا ليصيبوا ما اصبنا" فقلنا "وعلام نمنعهم وهذه اكياسهم منفوخة وجمالهم موقرة بالسمن والدقيق والسكر؟" قالوا "بل ازود من ذلك" فقلنا "وهل ازود من ذاك؟ هل ازود من السمن والدقيق والسكر؟" قالوا "نعم: يحفرون بأرضكم آباراً يفجرون منها ماءً وأشياء أخر، يتركون لكم الماء ولا يأخذون منكم إلا ما ترضاه انفسكم من تلكم الأشياء، فتأكلون وتشربون وتقر عيونكم بالمال وناعم الديباج والفاكهة والحلي والحلوى والعطور" قلنا "فليفعلوا، فوالله لا أطيب من هذا" قالوا "وما أدرانا أن أزواجكن يرضون بذلك ولا ينقلبون علينا إن عادوا؟" قلنا "ليس

عليكم منهم بأس فافعلوا بورك فيكم وأكثروا وأنعموا وتنعموا

وطيبوا نفسا"

قال:

فسألنا نساءنا :

- "والأطفال؟"

قلن:

- "ما شأنهم؟"

قلنا:

- "أما استحييتن منهم؟"

قلن:

- "قد أمرناهم في المرة الأولى أن يلعبوا بعيداً في منعرج اللوى فأبوا وتمنعوا وقالوا نريد أن نتفرج، أن نلهو. ولا تخشوا علينا فنحن نعرف كل شيء"

...

قال:

فلطمنا جباهنا وخمشنا وجوهنا وشققنا جيوبنا وأقعينا وأهلنا التراب على هاماتنا. ثم شددنا على بطوننا ودسسنا أصابعنا في حلوقنا نريد نقيءَ ما أكلنا وشربنا من سحت فما خرج من أجوافنا شيء.. وما هي إلا سويعات حتى جعنا وعطشنا من جديد فأكلنا وشربنا ثم نمنا

الى العصر فأقبلت وفود آل دينار وأبناء عمومتهم فأخلينا لهم الخيام

وجلسنا في العراء نحرس لهم الجمال ....

٢٠٠٢

مدينتي الجميلة

""قطعة انشائية كتبها أحد التلاميذ في مدينة راكوم الدهماء""

مدينتي (يعيش) فيها إثنا عشر ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة. يقال أن في مدينتي بعض الأطفال لكنيلم أر أحدا منهم. الناس في مدينتي مسالمون جدا، وادعون جدا، ويجيدون - باستثناء قلة منهم- فن الحياة.

قال لي أبي أنهم كانوا قبل أربعين عاما يرتدون الثياب الحمراء ويصبغون الدور باللون الأحمر ولا يحبون من الفاكهة غير تلكم الحمراء. لكنهم منذ عشرين عاما تحولوا الى الخاكي وأخذوا يرتدون بذلات "السفاري" الزيتوني ذات القطعتين واليشماغ الأحمر.

غير أنهم، منذ بضعة أعوام تحولوا الى الجلابيب البيض القصيرات التي تكشف عن سراويل بيضاء وأغطية رأس مستديرة بيضاء هي الأخرى ويطلقون لحاهم ويكثرون من استخدام أعواد السواك والعطور الرخيصة التي يشترونها من أمام الكاتدرائيات المنتشرة في كل مكان.

مدينتي جميلة، هادئة، وديعة، فيها نهر واحد بسبع قناطر. سمعت أن هناك في بعض المدن البعيدة أشياء غريبة عجيبة تدعى "الحدائق العامة" و"المكتبات" و"المسارح" و "دور السينما" لكن أولي الأمر وعلماء الأمة

المحفوظين بالدعاء أدركوا أن هذه الأشياء ليست إلا فخاخا ينصبها الأعداء لإفسادنا وغوايتنا وحرفنا عن الطريق المستقيم فارتأوا أن يمنعوها ويبنوا بدلا منها ألف كاتدرائية كبيرة وصغيرة نصبوا فوقها عشرين ألف مكبر للصوت لتذكيرنا ليل نهار بالعذاب الأبدي الذي سيلقاه المارقون الخارجون عن ألواح مدينتنا الأبدية الراسخة الصحيحة المنزهة. وفي المساء حين يملأنا الفرح الغامر مع ارتفاع الأصوات تمتلئ سماء مدينتنا بملايين الغربان التي تحوم في صمت على ارتفاعات خفيضة حتى لتكاد تلمسها باليد المجردة.

مدينتي الحبيبة ، يا مدينتي الحبيبة ، كم أشعر بالوحدة . أليس فيك طفل سواي ؟!

ملاحظة المعلم: النتيجة: صفر! أوصي بإحالته الى....

نزار الشجاع

حكاية شعبية للصغار والكبار ـ معدّة بتصرف

(١)

في زمانٍ بعيد بعيد عاش فلاح اسمه نزار.

كسولا كان نزار، بليداً لا يجيد عمل شيء، وفوق هذا وذاك .. كان جباناً! جباناً الى الحد الذي كان يخشى فيه من أن يخطو خطوةً واحدةً بمفرده. لذلك كنت تراه على الدوام متعلقاً بأذيال زوجته، متتبعا إياها

أينما حلّتْ، ولهذا السبب بالذات صار الناس لا يعرفونه إلا بـ... نزار الجبان!

غير أن الدنيا تدور.

في ليلة من ليالي الصيف الجميلة خرجت زوجته الى فناء الدار لإنجاز بعض الأعمال فتبعها نزار كعادته. وقف على عتبة الباب، كانت الزوجة مشغولة عنه بعملها، تطلّع نزار الى ما حوله: كان البدر المنير يغمر بضوئه كل الأرجاء، وانتابه إحساس غريب من الزهو والسعادة فأطلق لخياله العنان وأخذ يحدث نفسه بصوت عال:

- "هذه ليلتك يا نزار! لو كنت أطول إصبعين أو ثلاثة، أو كانت أكتافك أعرض قليلاً لكنتَ تهاجم الآن قوافل الشاه القادمة من فارس لتسطو عليها وتكدس في بيتك كل غالٍ ونفيس!"

صاحت به زوجته:

- إخرس أيها الثرثار! رعديدٌ مثلك يتكلم عن مهاجمة القوافل! عد الى فراشك فوراً واقبع هناك!"

- "هذا هو حالك أيتها المرأة الناشفة الدماغ! ها أنتِ الآن تمنعينني من مهاجمة قوافل الشاه وملء الدار بالنفائس واللآلئ! ألستُ أنا رجل البيت؟ كيف تجرؤين على مجادلتي؟!"

وعندما شعرت الزوجة أنه شرعَ في الثرثرة وأنه لن يهدأ قريباً هرعت

عائدة الى البيت وأقفلت الباب من الداخل وصاحت به ساخرة:

- "حسناً أيها البطل الصنديد! امض! أسطُ على قوافل الشاه إن

استطعت، أيها العجوز الخائر القلب!"

وفجأة أدرك نزار أنه وحيد في الفناء وأن الباب موصد بوجهه فوقف

دون حراك وقلبه يكاد يقفز من فمه من شدة الخوف وبدأ يتوسل:

- "دعيني أدخل. حفظكِ الله، اسمحي لي بالدخول!"

لكنهالم تفتح له. توسل نزار وتوسل لكن دون جدوى حتى رضخ

أخيراً فاقتعد حجراً كبيرا عند أحد الجدران ولبث منتظراً حلول

الصباح وهو يرتعد من الخوف.

مـر الليـل ثقـيلاً واقـترب الصـبح فـأحس بـبعض الاطمئنـان فـافترش

الأرض، حزينـاً، نادمـا، بانتظـار أن تسـمح لـه الزوجـة القاسـية بالـدخول..

وسرعان ما تسلل النعاس الى جفنيه..

كان الوقت صيفاً كما قلنا.. وها هو الذباب يطن في كل مكان، وتستقر

أسراب منه على وجهه وفمه. تكاسل في البداية عن طرد الذباب لكنه لم

يعـد يطيـق تحمـلاً فلطـم جبينـه ببـاطن يمنـاه وإذا بـالكثير منـه يهـوي

ميتاً.. أمـر عـادي قـد يحـدث لأي واحـد منـا، لكـن نـزار لـيس بالتأكيـد ككل

واحد منا..

- "آهـا! (غمغـم مسـروراً) ضـربة موفقـة يـا بطـل!.. أتسـاءل كـم واحـدة

منها قد صرعتُ"

وشرع يعد الذباب الساقط على الأرض:

- "واحدة.. اثنتان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. سبع.. إ .. إ .. وماذا بعد السبع؟ آه، عشر!.. ثلاث عشرة.. آه ، على أية حال لابد أنها ألف على الأقل!"

وتأمل قليلاً ثم أضاف :

- "يا إلهي!.لم أكن أعلم أن بداخلي كل هذه القوة! إذا كنت قادراً على قتل ألفِ "مخلوق" بضربة واحدة فأنا متأكد من أني قادر على النجاح في بطولاتي المقبلة دون الاعتماد على هذه الزوجة الحمقاء"

لم يضع نزار وقتاً فنهض من فوره ولوح بقبضته أمام باب الدار الذي

كانت زوجته تغط فيه نائمة وأطلق سيلاً من كلمات التهديد والوعيد

الهامسة وأدار له ظهره وتوجه نحو شيخ القرية وحكيمها الذي كان يهم

بالخروج الى الصلاة وقبّل يده وجثا على ركبتيه أمامه:

-"آه أيها الشيخ الحكيم ، أدع لي وبارك مسعاي!"

- "ليباركك الله يا ولدي. ما الأمر؟"

- "سأحدثك بكل شيء يا شيخنا. لقد بدأ الأمر هكذا..."

وسرد نزار للحكيم حكاية معركته الخارقة، مضيفاً أن الواجب يحتم

عليه أن يهجر زوجته وقريته ويضرب في الأرض بحثاً عن الأمجاد

والبطولات، ثم قال أنه لا يمانع لو كتب الحكيم قصة معركته الأولى هذه

كي لا يطويها النسيان ولكي تذكرها الأجيال من بعده!

حسناً . لابد أن حكيم القرية كان يتمتع بروح النكتة، فعاد الى كوخه

وأخرج من دولابه خرقة قماش قديمة مصفرّة وخط عليها هذا البيت

الشعري الذي خطر على باله ساعتها:

نزار الشجاع الذي لا يهابْ   بضربةِ كفٍّ يجندلُ ألفْ

طار نزار من السرور وقبل يد الحكيم ثانية وأسرع الى بيته فحمد الله

على أن زوجته كانت خارجة للحقل فأخذ من كومة الحطب التي عند

التنور عموداً رفيعاً طويلاً ثبت فوقه الخرقة فصارت مثل علمٍ صغير. ثم

نزل الى القبو وقلب عاليه سافله حتى عثر على سيفٍ قديم صدئ من

زمن جد جد جده .. حسناً، ها هو السيف وها هي الراية.. السيف والراية.. السيف والراية..ترى ماذا بقي بعد؟ آه . الفرس! نعم، الفرس البيضاء! ولكن من أين لك الفرس يا نزار؟ ليس في البيت غير هذا الحمار العجوز، فليرض به إذن ولينطلق على بركة الله!

(٢)

قُدُماً سار نزار، دون أن يدري الى أين.. وبعد ساعة أو اثنتين لم يعد يستطيع مغالبة رغبته في إلقاء النظرة الأخيرة على تلك القرية الصغيرة المنسية التيلم يغادرها مذ ولد.. فهاله أنها أصبحت بعيدة يلفها ضباب الوادي الذي شرع بالزوال اليه فانقبض قلبه وتبخرت شجاعته في إثر ذاك الضباب!

في حالة كهذه يطيب للمرء أن يحدث نفسه بصوتٍ عال ليطرد الرهبة.

و لماذا يحدث نفسه والحمار العزيز موجود؟

- "وهكذا يا حماري العزيز. أنا وأنت سنصنع الأعاجيب. سنفتح البلدان ونقبض الأتاوات. ربما أصبحت وزيراً، ربما أصبحت أميراً، أو ربما أصبحت سلطاناً إذا حالفني الحظ. وعندها سينحني الناس حتى الأرض لمشهد عظمتي وسيهتفون عند مقدمي: عاش السلطان العظيم! عاش السلطان العظيم! وسينشدون الأناشيد في أمجادي ويسمون أولادهم باسمي".

العجيب أن الحمار العجوز كان هو الآخر يشعر بالخوف من هذا المكان الغريب الموحش الذي لم يألفه من قبل فرفع عقيرته بالنهيق. وهكذا بين

الهتاف والنشيد والنهيق صار الصوت يعلو ويتردد صداه في أرجاء الغابة

التي دلفا إليها للتو.

الخوف يولّد الخوف، صار نزار يتخيل أن وحشاً كاسراً أو لصاً

متعطشاً للدماء يكمن خلف كل شجرةٍ أو أجمة متأهباً للانقضاض عليه

فزاد في صراخه وزاد الحمار في نهيقه..

ضجة غريبة عجيبة أخافت العصافير ففرت من أعشاشها وأجفلت

الأرانب والسناجب فتقافزت هنا وهناك وارتفع معها نقيق الضفادع

وصياح الطيور ورفيف أجنحتها في سيمفونية متنافرةٍ مخيفة كفيلة

بإدخال الرعب الى قلب كل إنسان.

وهذا ما حدث بالفعل. فبينما كان أحد المزارعين يهم بشق طريقه في الغابة عابراً من الجهة المقابلة وهو يقود حصانه المحمل بكيس من الطحين تناهى الى سمعه الضجيج المخيف الذي يقترب فأخذ يرتعد ويصيح:

- "يا ويلي! يا حافظ! يا ستار! لصوص! قطاع طريق! شياطين! جن!"

وأفلت اللجام وأسرع بالاختباء بين الأشجار الكثيفة تاركاً حصانه على قارعة الطريق. وسرعان ما وصل نزار الى ذلك الموقع بالضبط فرأى الحصان الواقف هناك: بسرجه ولجامه وبكيس الطحين الذي يتدلى من فوق ظهره، فتوقف عن الإنشاد.

- "لك الحمد والشكر يا إلهي! ماذا أريد أكثر من ذلك؟!"

نزل عن حماره من فوره. رفع كيس الطحين من ظهر الحصان ووضعه على ظهر الحمار وأمسك باللجام بيد وبالراية باليد الاخرى واعتدل بمشقة فوق السرج العالي ثم انطلق مبتعداً عن الغابة المخيفة حتى أنه لم يتكلف عناء توديع حماره العزيز!

أما عابر السبيل المسكين فلم يبرح مخبأه إلا بعد وقت طويل. فرأى حصانه وقد تحول بقدرة قادرٍ الى حمار عجوز يعلك الحبل البالي المتدلي بين فكيه.. أما كيس الطحين فهو في محله لم يتغير! فليولِّ الحصان وكيس الطحين! يا روح ما بعدك روح! أسرع المسكين عائداً الى أهله ليخبرهم أن جمعاً غفيراً ليسوا من الإنس ولا من الجان قد

اكتسحوا الغابة ومسخوا مخلوقاتها وهم يهتفون بحياة زعيم لهم لم

يستطع أن ينظر في وجهه ولكنه يظن أنه سمعهم ينادونه نزارا!

(٣)

كم مضى من الوقت على بطلنا الهمام وهو يسير من دون هدى وقد

أسلم الزمام لـ"حصانه" الجديد؟ علم ذلك عند الله. ولكننا نعرف أنه

وصل أخيراً الى مشارف إحدى القرى الجبلية الوادعة. تناهت إليه

أصوات موسيقى عذبة وطبل وزمر فسار نحوها فإذا به بين جمع من

القرويين الكرام الطيبين تقاطروا الى وليمة عرس كبيرة.

- "سلامٌ عليكم يا شباب!"

- "سلامٌ عليك أيها الزائر الغريب! تعال واجلس على الرحب والسعة!

اتخذ مقعد الشرف وكن ضيفنا العزيز"

أجلسوا نزاراً في صدر المجلس وجاءوا بالطعام والشراب الوفير. وبين القصف والضحك والطرب أخذ الحاضرون يتساءلون عمن يكون هذا الزائر الغريب الذي يلتهم كل ما يقدم إليه في إغماضة عين. أومأ الرجل الجالس على يمين نزار برأسه الى الراية العجيبة التي أسندها الضيف الغريب الى ظهره، وغمز الى جاره، الذي غمز بدوره الى جاره الآخر وانتقلت الغمزات من مدعو الى آخر حتى وصلت شيخ القرية الجالس على يسار نزار فرفع رأسه وتهجى الحروف التي خطت على الراية المصفرة العجيبة:

- "نـ ..نـ نـز.. نـزار الـ..شجاع الـذ..ي لا .. لا.. يهـ .. اب .. بضر..بات ..

كـ..ف ..يجـ ..يجن..يجندل ألف!!"

همس الشيخ بما قرأ الى الرجل الجالس على يساره في رعب. همس

الجار بدوره الى جاره ودارت الهمسات عائدة من حيث جاءت الغمزات.

أصبح الجميع في غاية الانفعال والترقب عندما عرفوا أن ضيفهم

الذي حل عليهم بغير دعوة لم يكن غير.... نزار الشجاع الذي لا يهاب!

فجأةً صاح أحد المدعوين:

- "آه، بالطبع! إنه نزار الشجاع بلحمه وشحمه! يا إلهي، لكم تغير!

لقد تعرفت عليه بصعوبة!"

عنــدها بــدأ العديــد مــن المـدعوين بتــذكر نــزار الشــجاع وحكايــات مغامراتــه وبطولاتــه مــن دون أن يغفلـوا عـن ذكـر معـرفتهم القديمـة بهـم والساعات الجميلة التي قضوها برفقته! وحين سأل أحد الشبان في شك:

- "كيـف لرجـلٍ عظيم مثلـه أن يسافر بهـذا المظهـر البسيط مـن دون أن يرافقه الخدم والمأمورين؟

أجابه أكثر من واحد منهم موبخاً:

- "أسكت أيها "الزعطوط"! وكيف لك أن تفهم هذه الأمور؟ إنه هكذا علـى الـدوام لا يحـب الاحتفـاظ بخـدم أو مرؤوسـين. لقـد دأب منـذ نعومة أظفاره على القول "ما حاجتي الى الخدم ما دام العالم كله يسهر على خدمتي؟"

- "و لماذا يحمل سيفاً عتيقاً صدئاً كهذا؟"

- "آه، هذا هو شأن الأبطال الأشداء. كل امرئ يمكن أن يدعي الشجاعة إذا تقلد أسلحة فتاكة، لكن نزار الشجاع يقتل الألف والألفين بهذا السيف القديم الصدئ! ثم أنه سيف آبائه وأجداده! ألا تفهم؟!"

رفع الجميع كؤوسهم وحيوا نزار الشجاع. وقام خطيبهم الخطير فارتجل كلمة مؤثرة بالمناسبة:

- "طالما يا سبع السباع وصلت إلينا شهرة بطولات حضرة جنابكم. ونحن كلناه أجمعين بالتمام والكمال نتشرف بأنه مقام جنابكم العالي شرَّف مقامنا الحقير بالحضور وشكراً!

لم يزد نزار عن أن تنهد ولوّح بيده في ضجر. فتبادل الضيوف نظرات ذات معنى ليظهروا أنهم قد فهموا المغزى العميق لهذا التلويح وتلكم التنهيدة. وسرعان ما ارتفعت الزغاريد ودوت الموسيقى وقام المغني وأكد أنه ألف هذه الأغنية منذ سبعة أعوام ونصف وكان ينتظر مقدم نزار الشجاع الى قريته لينشدها في حضرته:

يا مرحباً يا مرحباً

يا بطل التاريخ

فداؤك نحن يا نسر الجبال

فداؤك نحن يا صقر البوادي

يا شدّة وردنا

يا ضوء شمسنا

يا قمر الليالي يا سعد الزمان

نزار الشجاع الذي لا يهاب

بضربة كف يجندل ألف

❖ ❖

يا منصف الضعاف

يا دواء العليل

يا منقذنا من الآلام والمحن

يا قاتل الأشرار والأعداء

نزار الشجاع الذي لا يهاب

بضربة كفٍ يجندل ألف

وحين تفرق الضيوف كان صدى النشيد يتردد في القرية الصغيرة وكل القرى المجاورة.. وعند ينابيع الماء الثلجية، وفي الأسواق والمقاهي والمطابخ والحقول والطرقات:

نزار الشجاع الذي......

وصارت مآثره حديث الناس وشغلهم الشاغل، وصفوا خطره الجليل وطلعته البهية وطوله الفارع وطيبة قلبه ورجاحة عقله وعبقرية طفولته وعراقة أصله... وصار الناس يسمون أطفالهم: "نزار"!

(٤)

نعود الآن الى بطلنا: فبعد أن نجح بشق الأنفس في الإفلات من أهل القرية الذين أبوا عليه مغادرتهم قبل كذا وكذا من الأسابيع، واصل نزار مسيره الشاق نحو طريق القوافل الكبير (حيث النفائس واللآلئ التي تنظره بفارغ الصبر). بعد يومين أو ثلاثة وصل الى أحد المروج الخضر الواسعة، ولأنه كان متعَباً للغاية فقد ترجل عن جواده وأرخى له الحبل ليرعى العشب الطري وركز رايته في الأرض واستلقى تحتها وغط من فوره في نوم عميق.

في تلك اللحظة بالضبط كان سبعة عمالقة أشداء يسكنون قلعة عظيمة فوق التل القريب يسرحون أنظارهم في المرج العظيم الممتد تحت قلعتهم الحصينة فدهشوا للمنظر الغريب:

ـ "من ذاك الإنسي الذي بلغت به الجرأة والقوة حد انتهاك حرمة أرضنا، بل والنوم فيها؟"

وحمل العمالقة هراواتهم الضخام ونزلوا ليروا من يكون ذلك المعتدي الوقح. وحين وصلوا أبصروا جواداً يرعى في كسل، ورجلا رث الثياب يفترش الأرض ويغط في نومٍ عميق تحت راية خط عليها:

نزار الشجاع الذي .....

ـ "آه! إنه إذن نزار الشجاع بشحمه ولحمه!"

صرخوا في نبرةٍ مروَّعة؛ فقد وصلت الأخبار التي حملها ضيوف حفلة الزفاف السكارى الى أصقاع بعيدة.

تسمّر العمالقة في أماكنهم منتظرين أن يصحو نزار من نومه الهنيء. أما صاحبنا فحين فتح عينيه وأبصر العمالقة المنتصبين فوق رأسه بهراواتهم الضخام اعتراه الدوار وكاد أن يموت من الخوف وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد مخبأً يتواري خلفه فلم يجد غير الخشبة البائسة التي جعلها سارية لعلمه العتيد. لكن العمالقة كان لهم رأي آخر: إذ أنهم حين رأوا نزارا وقد شحب وجهه وصار يرتجف ويرتعد ظنوا أنه يتقد بالغضب عليهم جراء تطفلهم عليه وحسبوا أنه يوشك على الانقضاض

عليهم ليضربهم ضربة واحدة من ضرباته المهلكة الشهيرة ، فخروا على

ركبهم متوسلين:

- "آهٍ يا نزار الشجاع الذي لا يعرف الخوف. قد سمعنا عنك

الكثير ونحن في الحقيقة والواقع سعداء جداً بل نتشرف بزيارتكم

الكريمة. إن قصرنا قائم هناك فوق ذاك الجبل وإن لنا أختاً

حسناء تسكن فيه معنا نحن العمالقة السبعة. نرجوك أيها المقدام،

بل نتوسل إليك أن تمضي معنا الى هناك وتحل ضيفاً علينا!"

وشيئاً فشيئاً عاد نزار الى صوابه وأدرك ما يدور من حوله. التف

العمالقة من حوله وساروا في موكب جليل نحو القلعة وهم يتناوبون على

حمل رايته الشهيرة. وأقاموا له حفلاً باذخا حيث أطرى الجميع شجاعته

ورجولته وتواضعه وكرمه و.. و.. و.. فما كان من أختهم الحسناء إلاّ أن

تقع في غرامه على الفور!

(٥)

كان نجم نزار في صعود مستمر، فهاهم الأخوة الأشداء يطلبون إليه

بأنفسهم أن يتزوج أختهم المليحة، وها هو حفل الزفاف يقترب من

موعده.

ولكن، وآه من لكن!

بعد أيام قلائل ظهر في تلكم النواحي أسد عظيم متوحش أخذ يصول

ويجول وينشر الرعب والخراب من دون أن يردعه رادع أو يقف في وجهه

أحد، حتى أن العمالقة الأشداء أصابهم الخور وصاروا يتساءلون في وجوم

ما العمل ومن سيخلصنا من هذه الآفة الرهيبة؟

إنه نزار الشجاع بكل تأكيد!!

ومن غيره يجرؤ على مواجهة هذا الوحش الكاسر؟

واتجهت كل الأنظار نحو نزار. لم يكن للناس من أمل على هذه الأرض

غيره..

حين سمع نزار كلمة "أسد" كاد قلبه أن يتوقف. وحين أضافوا إليها

كلمات مثل "متوحش" و"عظيم" اجتاحه خوف هائل فأطلق ساقيه للريح

وفي رأسه فكرة واحدة: العودة الى بيته بأسرع ما تستطيع قدماه!

لكن الناس ظنوا أنه هب راكضاً كي يفتك بالأسد العظيم بيديه المجردتين.. أليست ضربة كفه تقتل ألف؟ أما الخطيبة الحسناء فصاحت به:

- "الى أين يا بطلي الجسور؟ لا تذهب وأنت راجل وأعزل!"

لحقوا به حاملين اليه الدروع والفؤوس والرماح ودججوه بالأسلحة حتى الأسنان، وأركبوه جوادا انطلق به مبتعداً .لم يكن نزار ليعرف أو ليبالي الى أين يمضي به الجواد، فكل ما كان يريد هو الابتعاد ... الابتعاد فقط!

ولكن سوء الحظ – أو ربما حسن الحظ – جعله يصل الغابة نفسها التي اتخذها الأسد مقراً له. وحين تناهى الى سمعه الزئير المخيف قفز

عن جواده وتسلق أحد الأشجار العالية ظنا منه أنه قد يكون أكثر أماناً،

وهناك في الأعالي تشبث بأحد الأغصان وهو أقرب الى الموت منه الى

الحياة. ولكي يناكده الحظ أكثر فأكثر خرج الأسد العظيم من عرينه

وسار في مهل وخيلاء حتى وصل الى تلك الشجرة بالذات وهناك زأر من

جديد ثم جلس متكاسلا وتثاءب فاتحاً شدقيه العريضين. حين رأى نزار

تلك الأنياب الطويلة الحادة جمد الدم في عروقه وأظلمت الدنيا أمام

ناظريه وخارت قواه فهوى ساقطاً.. تماماً فوق ظهر الأسد!

كان الأمر مفاجأةً كبيرة للوحش، فهبّ قافزاً في هلع وانطلق يجري

بكل ما أوتي من سرعة من مكان الى مكان فوق التلال وعبر الوديان ونزار

المسكين متشبث بظهره من أجل روحه العزيزة. وعندما رأى الناس المنظر الغريب صاحوا في إعجاب:

- "انظروا. لقد روض نزار الأسد! وها هو يمتطيه كما لو كان حصاناً!"

واستل الجميع خناجرهم وسيوفهم ولحقوا بهما وفتكوا بالأسد المتعَب الحيران. وحين استعاد نزار وعيه وأبصر الأسد الصريع واستطاع النطق من جديد كان أول ما قال:

- "خسارةٌ أنم قتلتم هذا الحيوان المسالم اللطيف! لقد كنت أنوي ترويضه وركوبه بدلاً من الحصان!"

انتشرت الأخبار في مثل لمح البصر، ثم ... حفلة أخرى، وقصائد وأغنيات أخر تمجيداً له ولشجاعته الخارقة! وأصر العمالقة الأشقاء

على الإسراع في مصاهرة البطل العظيم، وقربوا موعد الزفاف أسبوعاً كاملاً.

(٦)

غير أن الأمورلم تجر على ما يشتهون؛ لقد وصلت أنباء تزويج نزار بالشقيقة الحسناء الى أمير عظيم من أمراء إحدى البلدان المجاورة كان يطمع بالزواج منها فغضب غضبةً شديدةً وأعلن الحرب وأرسل عساكره لغزو بلاد العمالقة السبعة واختطاف العروس بالقوة إن لزم الأمر. هرع العمالقة السبعة نحو نزار وأبلغوه الأخبار السيئة ثم وقفوا أمامه خاشعين وقد أحنوا الرؤوس إجلالاً منتظرين أوامره السديدة. لا يحتاج المرء الى فطنة كبيرة ليخمن ما فعل نزار. فلقد هب من فوره مندفعاً من

القلعة وفكرته الوحيدة هي العودة الى قريته بأسرع ما يمكن. وفي هذه المرة أيضاً ظن الجميع أن نزارا خارج لمنازلة الأعداء بيده المجردة فاعترضوا طريقه وتوسلوا إليه أن يسلح نفسه أولاً وأن يسمح لهم بنيل شرف مرافقته والعمل تحت لوائه العظيم. وسرعان ما جيء له بالخيل والسلاح.. وسرعان ما صار تحت إمرته جيش عرمرم شاكي السلاح كل من فيه يحدث نفسه بالبطولات التي سيسطرها في إمرة نزار الشجاع، تلك التي سيحدث بها أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده.

الأنباء السيئة تصل سريعاً.. وها قد وصلت الأنباء الى المعسكر المقابل فانتابه الخوف والقلق وهو لما ينزل ساحة المعركة بعد! كيف لا وقد عرف

الجميع أن نزار الشجاع بشحمه وعظمه هو الذي يقود جيش الأخوة السبعة.. ويا ويل من يقف أمام قبضته التي تجندل ألفاً بضربة واحدة!

حين وصل جيش العمالقة ساحة المعركة اركبوا نزاراً فرساً أدهم نصف مجنون فكان يضرب الأرض بأقدامه القوية ويثب عالياً ويعض على اللجام. مشهد يثلج الفؤاد ويهز الخواطر.. من المؤسف ان آلات التصوير لم تكن قد اخترعت بعد وإلا كنت أريتكم صورة البطل والجيش يحف به هازجاً، جذلاً، صارخاً:

- "عاش نزار الشجاع ! الموت لجيش الملك الغازي! نزار الشجاع الذي لا يهاب.. نزار.. نزار!"

أما الحصان الهائج فقد خرج عن طوره فعض على اللجام وانطلق من فوره رامحاً نحو خطوط الأعداء.

ظن العمالقة وجنودهم ان نزاراً هاجم العدو من دون انتظار مساعدتهم فهبوا من ورائه مهاجمين وهم يرددون صيحات الحرب الوحشية.

في تلك الثواني القليلة التي سبقت احتدام الجيشين حاول نزار أن يكبح جماح الحصان المتهور أو أن يلوي عنانه ولكن من دون طائل فما كان منه إلا أن يمد جذعه ويقبض على غصن شجرة ظهرت أمامه رجاءً منه في أن ينفصل عن السرج ويتعلق بالشجرة ويترك الحصان وشأنه. غير أن الحظلم يشأ في هذه المرة أيضاً أن يتخلى عنه: لقد كانت شجرة يابسة

متفسخة الجذور فإذا بها تنقلع من جذورها مثل سن لبني يوشك على السقوط، فماذا كانت النتيجة؟

نزار الشجاع يكر على صفوف الأعداء وفي يده شجرة عظيمة!

عندما شاهد جند العدو هذا المنظر المخيف – وهم الذين خارت قلوبهم من قبل بسبب شهرة نزار المدوية- استداروا على الأعقاب وفروا صارخين:

ـ "اهربوا .. انجوا بأرواحكم! نزار الشجاع يهاجمنا وهو يقتلع الأشجار من جذورها في طريقه!!"

لا حاجة لنا الى رواية التفاصيل فالنتيجة معروفة: نصر مؤزر آخر وأناشيد أخرى وقصص جديدة عن البطولة والشجاعة والمجد.. وفي أول

جمعة تلت، وبعد الصلاة والخطبة كان نزار يعتلي العرش ويضع على رأسه تاج الملك المهزوم.. والعمالقة والتجار والمنشدون والكتبة والصرافون والحكماء والمنجمون كلهم بين يديه: يبايعون ويقسمون ويضعون أنفسهم وأرواحهم تحت تصرفه....

(٧)

عجيبة هذه الدنيا يا صحابي..

نزار الجبان.. آه، عفوا: نزار الشجاع الذي لا يهابلم يكتف بأن يكون قاطع طريقٍ أو خائفاً بل صار شاهاً عظيماً على بلاد مترامية الأطراف.. وعلى الرغم من أنه ظل حتى آخر أيامه يخاف من النوم لوحده، ويسهر الليل برمته إذا تناهى إليه صوت جرذي ضئيل فإن كتب التاريخ ما زالت

حافلة بأخبار بطولاته وفتوحاته وما زالت بقايا الأناشيد تتردد فوق السهول والسفوح البعيدة..

أما أنا وأنتم ونزار فنعرف الحقيقة بالطبع..

أنظروا إليه: ها هو يضحك فوق أوراق الكتب القديمة الصفراء..

يغمز بعينه لنا ويقول:

- إنه الحظ يا أصدقائي حين يبتسم.. حسناً.. لا تخبروا أحداً.. هل اتفقنا؟"

في الذكرى السنوية لرحيلي!

وأخيراً، وبعد يومٍ مرهقٍ طويل، آويت الى فراشي. وتمنع النوم عليَّ مثلما يفعل في مثل هذه الحالات. فالتجأت الى رزمة الصحف التي تكدست فوق المنضدة الصغيرة قرب رأسي. بدأت بملفٍ كامل أصدرته إحدى الصحف الأسبوعية عن حياة عالم اللغة الراحل (...)، ثم ثنّيت بمقالتين قصيرتين في رثاء الفنان الراحل (..) وأردفتهما بمقالٍ طويل

استغرق عددين من الصفحة الثقافية لجريدتي المفضلة عن ظروف

رحيل الشاعر العالمي (...)

.... ولا نوم بعدُ ..

تقلبت مرة بعد مرة.. حاولت أن أرغم عقلي على الاستسلام لكن من

دون جدوى، فعدت الى جرائدي: مقالٌ متوسط الحجم في الذكرى

الأربعين لرحيل الشاعر الخالد (....) ثم قصة قصيرة لم تنشر من قبل

للقاص الراحل (....) وخبر عن أمسية في اتحاد الأدباء بمناسبة رحيل

الشاعر (...) ودراسة نفسية عن آلام الشاعر الرومانسي العذب (...)

والظروف التي رافقت رحيله...

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً حين بدأت جنية النوم

الرقيقة تداعب أجفاني مثل أم حانية ورأيتني أغرق في أحضانها..

هناك في العالم الآخر المعتم كنت جالساً في غرفةٍ تشبه مكتبي. نشرتُ

الصفحات الداخلية للجريدة فأبصرت لدهشتي صورةً قديمةً لي هي

بالمناسبة الأسوأ من بين صوري السيئة جميعاً.. الى اليمين منها قرأت

عنواناً بدا مألوفاً لدي؛ شيئاً قريباً من:

"في ذكرى رحيل الشاعر - ثم اسمي بخطٍ

مائلٍ مميَّز- ....تمظهرات المخيلة الجدلية

وتأثيث النص الشعري في ...الخ"

لم أفهم بالطبع كلمة واحدة من المقال، ربما لأنني كنت نائماً أو ربما

لبلادة قديمة تعتريني كلما واجهتني جملٌ عويصة كتلك التي امتلأت

بها المقالة، غير إنني أكملت القراءة ثم رحت أبحث عن اسم الكاتب

وحاولت من دون جدوى أن أتذكره، ثم أعدت النظر في الصورة ووبّختُ نفسي لأنني لم أحظَ طيلة حياتي بلقطة فوتوغرافية أتركها لعيالي أبدو فيها حقاً مثل شاعرٍ راحل. لقد كنت أبدو في كل تصاويري على هيئةٍ من اثنتين: أما مثل رجلٍ برم ينتظر في نفاذ صبر أن يتخلص من ورطةٍ ما أو مثل امرئٍ يوشك أن ينفجر بالضحك.

(هناك انقطاع في تسلسل الحلم ما عدت أذكره.. ثم..)

رأيتُني في مكتب محرر الصفحة الأدبية أحاول إقناعه بأنني لم أمت بعد وبأن هذا الذي نشره ليس إلا فرية وتطاول فظ على اسم كاتب مبدع مجدد رفد -وما يزال- الساحة الأدبية بالكثير من المنجزات الإبداعية التي .. الخ..الخ..

ورأيتُني أطنب كثيراً وتزداد نشوتي وأنا أكيل المدح الى نفسي حتى شعرت والله أن قدميّ يرتفعان رويدا رويداً في الهواء وأحسست بالدوار فجذبت سترتي بقوة الى الأسفل حتى عادتا ولامستا الأرض..

كان المحرر الذي تداخلت ملامحه بملامح مديري في الابتدائية ينصت إليّ في دماثة وصبر حتى إذا فرغت من حديثي تثاءب وسألني بأدب وكأنه يراني أول مرة:

- "تفضل. ماذا تريد؟"

تلوّت أمعائي من الغيظ لكنني تمالكت نفسي واعدت شكواي برمتها، غير أنه تثاءب من جديد وأعاد عليَّ السؤال نفسه وكأنه لم يسمع شيئاً. عندها انفجرت غاضبا وتفوهت بكلمات لم اعد أتذكرها غير أنها كانت

حتما على درجة من البشاعة والغضب جعلتني ارتعد وابكي وأخلط

بينها. عندها فقط انتبه إليّ المحرر الذي غير شكله مرة ثانية فصار

شبيها بالفيلسوف الراحل (...) وتساءل في نبرة استنكار واستصغار:

- "هل تريد إخباري أنك ما تزال على قيد الحياة.. هئ هئ هئ! تعالوا

يا أصدقاء، هلموا يا زملاء! أنظروا الى هذا الرجل! يدعي أنه حيٌّ

يرزق!"

وتجمع في الحال حشد من الناس لا أعرف من أين جاءوا. يا إلهي!

إنهم هم! الشاعر الراحل (..) والقاص الراحل (..) والفنان الراحل (...)

والعالم الراحل (...) والشاعرة الراحلة (...) والمفكر الراحل (...) والراحل

.. والراحل.. والراحل..

لم يظهروا نحوي —والحق يقال- شيئاً من العداء بل كانت نظراتهم

الصامتة نصف الزائغة مليئة بالإشفاق والرثاء.

- "يا أخي (قال لي المحرر الذي بدل سيماءه للمرة الثالثة) يا زميلي، يا

عزيزي. إن كان ما تقوله صحيحاً فما هذه العفونة التي تفوح من

جسدك؟ وما هذا الشحوب الذي يعتريك؟ و لماذا لا تلامس

أقدامك الأرض؟"

لم أعرف ما أقول، فلجأت الى الحيلة القديمة: السباب والتلويح

بالقبضة المضمومة. واندلق كأس من الماء لا أدري كيف ظهر على المنضدة

ثم هوت أرضا لوحة من الخزف الصيني الرقيق اعترضت يدي فأحدثت

صوت تهشم كضربة من ضربات سيمفونية بتهوفن الخامسة. حاول

المحرر – الذي ما عدت قادراً على متابعة تحولاته- أن يهدئ من روعي فأمسك يدي لكنني جذبتها بقوة فإذا بها تنفصل عن كتفي مثل فخذ دجاجة أطيل سلقها..

أحسست برعبٍ هائل فصرخت صرخةً عظيمة وأطلقت ساقيّ للريح لكنهم كانوا ورائي من دون أن يبذلوا كبير عناء..

(انقطاع ثانٍ في تسلسل الحلم .. ثم..)

كنت مسجىّ فوق منضدة مرتفعة من المرمر الأبلق. الى يميني وبمستوى كتفي جلس ثلاثة من الرجال الذين بدوا على قدر كبير من الوقار والأهمية وأمام كلٍ منهم ميكرفون معدني وكأس من الماء وعلبة من المناديل الورقية وخلفهم لوحة سوداء كتب عليها بالطبشور الأبيض:

يقيم أتحاد الـ .. أمسية تأبينية في ذكرى رحيل....

والى يساري امتدت بضعة صفوف من الكراسي. كان الصف الأول مشغولاً بعدد من النساء والرجال في أعمار متفاوتة يتشح بعضهم بالسواد. والى الخلف منهم كانت القاعة مملوءة الى نصفها بالرجال الذين كانوا يلاحقونني قبل قليل، غير أن إحساساً مغايراً كان ينتابني هذه المرة، إحساسٌ بين الارتياح واللامبالاة .. إحساس رجلٍ يوشك على الانفجار بالضحك...!

في الصباح، حين صادفت وجهي في المرآة، قررت أن يكون أول شيء أفعله عند مغادرتي البيت هو التوجه نحو أقرب مصور والتقاط صورة جديدة... صورة تناسب شاعراً راحلاً!!

٢٠٠٥

ديـــالـــوج

- مـن لديـه كلمـة طيبـة فليقلـها، وإلا فليغلـق فمـه.. لسـت مسـتعداً لسماع المزيد.

- لا أريد إلا أن أنبهك قبل فوات الأوان، أن أفتح عينيك..

- لست أعمى.. ولا حاجة بي الى نصائح.

- إن خالها بخيل.. خسيس.. إنه يخاف إفراغ بطنه لئلا يشعر بالجوع!

- قلت كفى!

وأمها.. أمها منافقة كبيرة.. لطالما حرضت زوجها ضدنا. إسألني أنا،

أنا أعرفها جيداً؛ كنت أقضي الإجازات عندهم.

- كفى أرجوك!

- أما أخوتها، فالكبير سكير مدمن، نذل وضيع، والثاني يمثل دور

الدرويش، ينام في الجوامع هرباً من العمل وتحمل المسؤولية.

- ألا يكفي!؟

- والصغير.. آه من الصغير! لطالما نصحته، لطالما قلت له إن هذا

الكلام الذي يحشون به رأسك سيقودك الى حبل المشنقة ولكن من

دون جدوى.

- يا إلهي.. ما هذا الإلحاح!؟

- أهؤلاء تريدهم أخوالاً لأولادك؟ أهكذا تختارون لنطفكم؟ إنها تكبرك بثلاثة أعوام ورغم هذا فشلَتْ في إكمال دراستها المتوسطة.

- وأنت. أنت مثقف، أنت ماجستير، ألف واحدة تتمناك.

- ألا رحمتني؟!

- أنا ابن عمك. لا، لست إبن عمك، أنا صديقك، أخلص أصدقائك. هل تشك في محبتي؟ هل نسيت كيف تلقيت الرصاص بدلا منك في ذلك اليوم المكفهر؟ هل نسيت كيف بعت دراجتي البخارية كي تسدد نفقات دخولك الجامعة؟

- لم أنس شيئاً! وحق اللهلم أنس! أفضالك على رأسي! ولكن دعني وشأني.. أنا أحبها وهي تحبني .

ـ من قال ذلك؟ كلاكما مخطئ؛ أنت واهم. أنت تشعر بالحرج وضميرك يؤنبك بسبب الوعود التي قطعتها في أيام المراهقة. وهي أيضا لا تحبك، إنها فقط تريد الاحتفاظ بفرصتها في الزواج قبل أن يفوتها القطار.

ـ هذا الحديث سمعته من قبل.

ـ خالتها عاهرة!

......

ـ أبوها مفلس، غارق في الديون وسيجرك معه تحت العجلات.

...

ـ بيتهم متداع!

...

- جدة أبيهم لم تكن مسلمة!

....

- أنفها كبير!

....

- آه سأقتل نفسي إن تزوجتَها!

- أنت؟

- سأقبّل يديك... أقبّل رجليك.. أتركها لي فأنا مجنون بحبها!

٢٠٠٢

رجل المطر

حكاية من ثلاثة فصول.. بين الواحد والآخر أحقاب من الدهر

(١)

كم مضى عليه من الوقت وهو واقف هنا في هذه البرية الشاسعة..

هذا المدى الأبدي الذي لم يكن يدري ما يفعل فيه ولا ما جاء به إليه؟

كان المطر ينهمر على رأسه الأصلع الصغير اللامع مثل بيضة نسيتها نعامة في هضبة جرداء. شعر بألم حقيقي في فروة الرأس وكأن قطرات المطر استحالت كراتٍ من فولاذٍ مدبب.

قال مع نفسه: إذا فسد الرأس خرب الكل.. وسحب ياقة بلوزته المطاطية الصفراء حتى غطت رأسه فانكشف ظهره للمطر..

تذكر آلام ظهره الأبدية فاقشعر جسده من الخوف الذي زاده البرد، فرفع سرواله الى أقصى ما يستطيع فصار مثل مصارع ثيران إسباني..

المطر ينهمر... ينهمر... ينهمر..

انكشفت من أسفل الساقين مسافة تقارب الشبر فداهمه برد زاده الخوف فرفع جوربيه المتهدلين الى أقصى ما يستطيع فاتسعت الخروق في عقبيه فتأوه وقال بصوت مسموع: إنما الحمى تأتي من الرجلين.

المطر ينهمر... ينهمر... ينهمر..

جلس في الوحل.. سحب ساقيه الى صدره.. تكور كالقنفذ ومط أطراف بلوزته الى الأسفل حتى غطى القدمين.. أحس بالبرد يتسلل الى مقعده فمال على جنبه الأيسر فغمر الطين ذلك النصف من جسده واندفع خلال الثقوب ليلامس الجلد المنكمش.

....

حوّمَ في السماءِ الرماديةِ الباردة طيرٌ مدَّ جناحيهِ العريضينِ وأخذَ ينزلقُ بهدوءٍ في الهواء. نظرَ الى الأسفلِ: كانَ الرجلُ يحاولُ في صمتٍ أن يستديرَ الى الجانب الأيمن.. رجلاه المطويتان مشدودتان بقوةٍ الى صدره،

وأصابعُ يديه تشابكتا في إحكام فوق قصبتي ساقيه وكان ظهره ورأسه المختفي في البلوزة يشكلان قوساً شديد الانحناء.

...

كم مضى عليه من قرون وأحقاب وهو في هذه القشرة السميكة من الطين والكلس..

لم يكن ميتاً بالتأكيد. كان على يقين من ذلك. لكنه بالمقابل لم يكن واثقاً من أنه على قيد الحياة. كانت الفصول تتعاقب عليه. إنه يكاد يشعر بتحولاتها من تلك الدمدمات التي تجيء وتخبو من الخارج، ومن ذلك التغير الغامض في جلده. لم تعد الحمى تأتي من القدمين. لم تعد كرات الفولاذ تنغرس في صلعته، لقد اختفى القلق، وأصبح الخوف شيئاً من الماضي.

الماضي؟ وماذا يعني له الماضي؟ أهو نقيض الحاضر؟ ولكن هل من حاضر؟ كان يسلي نفسه بملايين متكررة متعاقبة متداخلة من هذه التساؤلات. لكنهلم يكن معنياً بالعثور على إجابة لأي منها. وماذا يفعل بالإجابة؟

أحيانا كان يسأل نفسه: هل أنا في حلم؟

وأحياناً يتساءل إن كانت الحياة ماضية هناك.. خارج هذه القشرة الملساء..

وفي أحيان قليلة كان يتوق لمعرفة ما يدور هناك، لكن هذا التوق الغامض المفاجئ يختفي، يتلاشى من دون أن يترك أثراً.

ومثل فقاعة من غاز تتصاعد رويدا رويدا من قاع مستنقعٍ تغمره الطحالب حتى تتمزق في قرقرةٍ مكتومة، كان يراقب أعماقه في دهشةٍ تخالطها نشوة وحشية حين تتصاعد من أعماقه السحيقة في الزمان والمكان آهٌ غريبة كأنها قادمة من لحظة خلق الكون.

(٢)

كانت الأرض والسماء كأنهما كتلة واحدة من البياض الثلجي الناصع. وصمت مريب يخيم على السهل والتل والوادي. وهناك في الأعالي كان سرب من طيور صامتات يفرش أجنحته الشيباء وينزلق في الهواء الساكن.

أخذ الحشد الصغير المهمهم من الصبية والشيوخ والعجائز الذي تحلق حول الكرة يكبر شيئاً فشيئاً، ونظرات التساؤل والعجب تروح

وتجيء بينهم. وتقدم صبي جريء نحو البيضة الهائلة -هكذا ظنها الجميع- وتلمسها في حذر وسحب أصابعه سريعاً، ثم أعادها في جرأةٍ أكبر، ومسدها بجمع يديه، ثم ألصق أذنه بها. ونفر إلى الخلف وقد تملكه الرعب. ودمدم بضع كلماتٍ غريبةٍ رددها بعده الجمع في دهشةٍ وخوف.

وأخذ صوتُ أنينٍ مكتومٍ يصّاعد من داخل القشرةِ السميكة التي ظهر فيها شرخٌ صغير سرعان ما استطال واتسع لتطل منه عينان نصف مغمضتين أعشاهما الضوء المفاجئ. وتخلص الجسد الشمعي المرتجف من قشرته وارتمى على الأرض وهو يتطاوح يمينا وشمالا ثم تكور على نفسه وراح يتأمل ما حوله في عناء. واستباحه النهار المتوحش بكل فظاظته وقسوته واجتاحه الم رهيب في الرأس والظهر والقدمين فصرخ

من أعماقه ثم أخذ يتلوى ويتمتم ويتفقد أعضاءه. واختض من رأسه حتى أخمص قدميه. وقبل أن يهمد الجسد سمع الجميع بوضوح جملة واحدة ما فهمهما أحد منهم لكنهم حفظوا ألفاظها جيلاً بعد جيل :

- ويلاه ..لم يكن حلماً إذن!

(٣)

فصول كثيرةٌ تعاقبت : شتاء ثم شتاء ثم شتاء ثم شتاء....

حط سربٌ من طيورٍ مبتلةٍ نصف عريانةٍ تحت الإفريز الذهبي للمعبد العظيم فأسكرته رائحة البخور وأصوات الموسيقى والصلوات. نظر إلى الأسفل فأبصر في وسط الباحة الرخامية القرمزية نصف قشرةٍ لبيضةٍ هائلةٍ مغلفة بالذهب أحاطت بها أكوام من زهور داكنةٍ وارتمى في وسطها تماماً تمثال ابنوسي لرجل يلتف على نفسه..

وبـين الفينــة والأخــرى كانــت ترنيمــة الراهــب الكـبير تعلــو وســط

الموسيقى والهمهمات:

- ويلاه ..لم يكن حلماً إذن!

٢٠٠٥

هــذه صورتــي

ـ "هذه –كما طلبتَ أيها الصديق الياباني- أحدث صورة لي أرسلها لك

عبر "الماسنجر" وأرجو أن تصل إليك ....

ها .. وصلَتْ!؟ أمر عجيب!لم يستغرق الأمر سوى عشرين دقيقة..

يبدو أن خط الانترنت عندنا قوي هذه الليلة! .. لا تبتسم!

تقول إنك تفاجأتَ بها؟ .. لا لم ألتقطها في المستشفى.. التقطتها

قبل قليل بكاميرا الحاسبة..

ليس فيها –على ما أظن- ما يثير العجب.. تقول إنها تحتاج الى تفسير؟ مفاتيح؟ ماذا.. هل تحسبها خريطة لقارة مجهولة!؟

حسناً، حسناً.. كما أن كل خريطةٍ تحتاج الى تفسير ما، سأقدّم –في سرورٍ- مفتاح خريطتي.. أعني صورتي –لا فرق فاسألْ!"

- "ما هذا الشيء الذي يلتف حول عنقك؟"

- "هذه ياقة من البلاستك المقوى.. سنادةٌ للرقبة يتخذها المصابون بتآكل الفقرات العنقية. وأسباب التآكل كثيرة، كما تعلم، منها الهرم المُبكِر وكثرة الانحناء ، نعم كثرة الإنحاء لرفع الأحمال وتقبيل الأيدي والأرجل أو لالتقاط الفُتات أو ربما بحكم العادة المتوارَثة عند شعوبنا".

- "الانحناء لمن؟"

- "لكثيرين.. بعضهم نراهم في كل مكان.. وبعضهم قد لا نراهم طيلة حياتنا.. ملاحظة: لا يظهر في الصورة حزام الظهر، وهو الآخر حزامٌ من البلاستك المقوّى، أو سنادةٌ للظهر يتخذها المصابون بانزلاق الفقرات القطنية... هذا الانزلاق -كما يعلم أكثر الناس- يأتي من أسبابٍ كثيرة، منها -ثانيةً- الهرم المبكر وكثرة الأحمال وتعود الانحناء!

- "لماذا تلف هذا الشيء بمنديل من القماش؟"

- "هذا لامتصاص العرق.. درجة الحرارة ها هنا في الليل ٤٥ درجة مئوية.. أما في النهار... عفواً، هذه زلّةُ لسان!"

- "منديلك رمادي، ستائر شباكك كذلك، وقميصك رمادي..؟؟"

- "أنتَ أكثرُ ذكاءً مما توقعت! هذا اللون هو الأكثر اقترابا من الحقيقة، الأكثر ابتعادا عن الأحلام، الأكثر تحملاً للأوساخ، الأقرب الى لون أيامنا-عفواً هذه زلّة لسانٍ أخرى!

لكن هذا ليس كل شيء؛ هنا يجب أن تختار الألوان بعناية. لا، ليس من أجل الأناقة أو مواكبة الموضة أو غيرها من السخافات! الألوان هنا قد تسبب موتك إذالم تحسن اختيارها: مرة قبل أربعين عاماً خرجت أمي للتسوق ومعها أخي ذو الأعوام الخمسة فاعترضها رجال ذوو شوارب ثخينة كانوا يسمون أنفسهم "الحرس القومي" .. أشرعوا بوجهها رشاشات كان اسمها "بورسعيد" مهداة من رجل كان اسمه "جمال عبد الناصر" وأخذوا يشتمونها ويصرخون بوجهها .لم تكن أمي تعلم عم يتحدثون، لكنها فهمت بعضا من كلماتهم: أحمر! شيوعي! كلبة! فارتمت على

أقدامهم تتوسل لإنقاذ الصغير... أخي الذي لم تحسن اختيار لون قميصه!"

- "ما هذا الذي وراءك .. في خلفية الصورة؟"

- "هذا شباك .. شباك عادي مفتوح على الليل. والأشرطة الملصقة عليه أمر ضروري من أجل الانفجارات .. أحياناً تأتيني منه بعض النسمات التي تضل طريقها، والكثير الكثير من الأصوات".

- "مثلاً؟"

- "مثلاً: نقيق الضفادع، مواء القطط الشبقة، أصوات الانفجارات كما ذكرت، بكاء أطفال الجيران في السطوح وهم يتقلبون من لسعات البق، أصوات أقدام تفر وأخرى تكر، صراخ المآذن المتنافسة (هذا

شيء لن تفهمه) أصوات مارينز يصرخون : (Go, Go, Go!)...

وأخيراً: صوتٌ لا يسمعه غيرنا،نحن المصابون بانزلاق الأهواء:

صوتُ رنّاتِ قيثارٍ قديم.. بسبعة أوتارٍ من الذهب.. يأتي من بعيد...

من الجنوب.. من تلّةٍ في أور.. أنصِت: إنه يجيء ويروح.. ممتزجاً

بصوت فيروز القادم لنجدتي... من الغرفة الثانية.. الغرفة التي لا

أراها!".

٢٠٠٦

دودة!

أو حكاية قصيرة جداً تتضمن شيئاً من واقع الحال الذي ينتاب بطل

القصة (الذي يتحدث بصيغة الراوي) في كل ليلة منذ ما يزيد على الشهر

وتتضمن كذلك بعض المعلومات المفيدة في الجغرافية وعلم النفس و .....

- "دودة!"

هذا ما سيكون تعليق العراقيين البغاددة .-هؤلاء البغاددة الأقحاح،

سادة التلميح والتمليح والنوادر والطرائف والتشبيهات والتعليقات- على

واقع الحال، أي على ما ينتاب العبد الفقير في كل ليلة، حين يشارف

الهزيع الأول من الليل على الانتهاء.

(هامش اعتراضي رقم ١: أود بهذه المناسبة أن أعترف بأني لا أعرف

المعنى الدقيق للهزيع، غير أني أسمع كثيراً عن الهزيع الأخير من الليل

وعليه أفترض أن هناك هزيعاً أولاً وثانياً وثالثاً ..الخ . انتهى الهامش).

- "دودة!

وملخَّص واقع الحال أن الليلَ -في هزيعه هذا- يسوقني ركلاً الى هذا

السلوك الذي لا أعرف له سبباً والذي يتكرر بإلحاح غريب حتى تسلل

الى نفسي شك -ولو ضئيل- بأنني أقترب من المانيا.

(هامش اعتراضي رقم ٢: لا أقصد بالطبع ألمانيا Germany وهي

البلد الصناعي الأوربي المعروف الذي يبلغ عدد سكانه ٨٢.٣٩٨.٣٢٦

نسمة) (بحسب إحصاء عام ٢٠٠٣) وتبلغ مساحته ٣٥٦,٩٧٠ كيلومترا مربعا والذي يحده -أو يحدها- من الشمال بحر البلطيق والدنمارك وبحر الشمال، ومن الشرق بولندا وجمهورية التشيك ومن الجنوب النمسا وسويسرا ومن الغرب فرنسا وبلجيكا ولوكسمبرغ وهولندا والذي انطلقت منه أو منها الحربان العالميتان الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) .. كلا، كلا، معاذ الله لا أقصد ألمانيا أو ما يعرف بجمهورية ألمانيا الاتحادية أو Federal Republic of Germany بالانكليزية أو Bundesrepublik Deutschland باللغة الألمانية، وهي اللغة التي يتحدث بها حوالي ٧١ مليون نسمة في ألمانيا نفسها بالإضافة الى ٧ ملايين نسمة في جمهورية النمسا و٣٠٠ ألف نسمة في لوكسمبورغ

و٣،٤٠٠،٠٠٠ نسمة في الجزء الشمالي من سويسرا ومليون ونصف المليون نسمة في مقاطعة الألزاس واللورين شرقي فرنسا وعدد غير محدد بدقة في بلدان القارة الأوربية الأخرى. هذا في ما يخص أوربا، أما في الدول الأخرى فهناك جالية كبيرة تتحدث الألمانية في كل من:

١- البرازيل، ويبلغ تعدادها ..... ولكن أين كنت؟ آه كنت أقول إنني لم أقصد دولة ألمانيا بل المانيا mania وهي بحسب تعريف الموسوعة البريطانية- أو ربما الأمريكية "حالة عقلية غير سوية تتميز بمزاج يتسم بالتوتر، والمبالغة في تقدير النفس والثقة بها، وفرط النشاط، وقلة النوم، والثرثرة، والمقامرة، والتبذير، وتشتت الحديث واسترساله في تفاصيل مختلفة، والتلاحق السريع للأفكار... الخ الخ. ويعتقد المصابون بهذا المرض –وقانا الله وإياكم من شرّه- بأنهم أكثر شجاعة أو موهبة أو رهافة

حس.. وقد تنتاب المصاب المسكين في الحالات الشديدة أعراض جنون

العظمة أو الكآبة الانفعالية..."

أقول هذا فقط لغرض التعريف والتوضيح والتبسيط وإضاءة جوانب

الموضوع من النواحي اللغوية والعلمية والاجتماعية والسياسية

والاقتصادية والفنية والتاريخية والـ... نعم. كان يمكنني بالطبع أن أعيد

صياغة العبارة الأخيرة التي تسبق هذا الهامش وأقول إن شكاً ضئيلا

جدا بدأ يتسلل الى نفسي بأنني أقترب من حالة المَسّ (حسب ترجمة

برنامج الترجمة الألكترونية الملحق ببرنامج Microsoft Word إصدار

عام ٢٠٠٢، أو الهَوَس والولوع الشديد حسب تعريف قاموس المورد

للمرحوم منير البعلبكي في طبعته السادسة عشرة الصادرة عن دار العلم

للملايين في بيروت سنة ..... ولكن لا.. لا أحب أن أطيل عليكم ... انتهى

الهامش الثاني).

. "دودة . آه نعم دودة!"

قلت إن ملخّص واقع الحال هو إن الليلَ -في هزيعه هذا- يسوقني

ركلاً الى هذا السلوك الذي يكاد يقترب- ولو جزئياً- من المانيا. التي

تدفعني بدورها الى الإمساك بالقلم وكتابة بضع صفحات تخرج أحيانا

على شكل أشعار متينة السبك واضحة المأخذ شريفة المقصد وأحيانا

أخرى على شكل قصص أخلاقية واجتماعية تفيد النشأ وتهذب الخلق

وتنير العقل وأحياناً أخرى على شكل مقالات سياسية واجتماعية

واقتصادية ترشد العامة وتعين الخاصة من أصحاب الرأي والتدبير على

سياسة رعيتهم بما يحقق منفعة الأوطان والمواطنين.

(هامش اعتراضي رقم ٣: يلحّ عليّ اعتراف لابد أن أفضي به في الحال: الحقيقة إنيلم أكن دقيقا عندما أشرت الى أنني أمسك بالقلم .. الخ، فهذه في الواقع عبارة مجازية إذ إنني لا أمسك القلم بل أنقر على أزرار الكي بورد keyboard باستثناء الحالات التي يتصادف فيها انقطاع التيار الكهربائي الحكومي مع عطل المولد الكهربائي الذي اشتريته في السادس من شهر آب المنصرم: أصفر اللون، يعمل على البنزين، قدرته التوليدية تبلغ .... انتهى الهامش الثالث).

- "أف .. دودة!"

يحدث هذا يومياً -أعني ليلياً- ومنذ أكثر من شهر -اثنان وثلاثون يوما بالتحديد- إذ ما أن أنتبه الى دقات ساعة المطبخ -التي تعمل على

بطاريتين من الحجم المتوسط- وهي تقول: "تك تك تك. إنها الحادية عشرة ليلا يا عزيزي" حتى أقفز من فراشي -ومن حضن زوجتي في بعض الأحيان.. اعذرني فلا حياء في هذه المواضع.

- "تك تك تك . إنها الحادية عشرة ليلا يا عزيزي".

تقول الساعة -وليس زوجتي بالطبع كما قد يتبادر الى ذهن البعض- عندها أنهض على الفور.. لا ليس الى الحاسبة بل الى المطبخ حيث أعد شطيرة من الجبن أو اللحم المعلب أو الخيار والطماطم وعلبة من المياه الغازية أو العصير وماعونا صغيراً من الموالح -أو النُقل. أنظر مادة نقل في لسان العرب- وأربعة سجائر أسبين أرتبها جميعا في صينية من الـ stainless steel.. -إيرانية الصنع، قطرها ٢٥ سنتيمترا-

- "تك تك تك .. إنها الحادية عشرة والنصف يا عزيزي"

أفتح الحاسبة وأنا أشعر بتوتر شديد.. ودون أن أدري :

- "تك تك تك إنها الثانية عشرة ليلا.."

عندها يأتيني الصوت -أقصد الأصوات المختلطة- لا أعرف من أين..

وفي كل مرة أشعر بخوفٍ شديد وكأني أسمع أصوات أقدامٍ لشرذمة تنوي تصفيتي.

(هامش اعتراضي رقم ٤: أعني بالتصفية assassination وليس purification .. انتهى الهامش).

غير أن الصوت يزداد قرباً من رأسي – من أذني اليمنى بالتحديد- ويهمس في نبرة آمرةٍ متوعدة "أكتب" وسأطيع على الفور ومن المرة الأولى (وليس من المرة الثالثة كما يجري في الحوادث التاريخية).

"تك تك تك"... أنقرُ على أزرار الكي بورد.

- "تك تك تك .... إنها الواحدة صباحاً يا عزيزي" تقولُ ساعة المطبخ

"تك تك تك" أضربُ بقوة أشد ... تتحولُ التَكّات الى إيقاع محموم..

أتناول النقل أولاً و..

-"تك تك تك.. إنها الثانية صباحاً يا عزيزي" سأتظاهر بأنني لم

أسمع ...أشربُ العصير

"تك تك تك" ... تتسارع الضربات على الأزرار

- "تك تك تك ... إنها الثالثة يا عزيزي" تقول ساعة المطبخ متثائبةً

فأترك الأزرار وأنا أحس بجوع شديد... التهم الشطيرة.. وأنظر

بإعجاب -أقصد بفخر- الى ما أبدعه عقلي الجميل -أعني

المتميز- أراجع الكلمات واحدة فواحدة وأحصيها وأحاول أن أجعلها

ذات عدد زوجي- قابل للقسمة على ٦ إن أمكن- وأتساءل متباهيا

بصوت مسموع:

- "ألم تكن هذه أعجوبة أخرى؟"

أطبع منها نسختين على الأقل.. أحفظها في مكانين مختلفين حتى

يحين الوقت الذي يرتقي فيه الناس الى مرتبة فهمها والأخذ بها.

- "دودة!"

(هامش رقم ٥: تك تك تك ... إخرس ونم!).

٢٠٠٦

الرجل... الذي.. عقر.. الناقة..

"ز..ز..ز..."

كنت أسمع الأزيز وأشم رائحة الشواء وكأنهما يأتيان من مكان قَصيّ.

كنت أشعر كأن السَفود المتقدلم يكن يدخل بين أقدامي .. وفي شحم

خاصرتي..لم أكن أحس إلا بلمزاتٍ لا تكاد تشعر..

- "أيها الكلبُ الكَلِب.لمَ عقرتها؟"

هذا الكلام سمعته من قبل. ولكن أين ومتى؟ في أية ولادة أرضية أو سماوية؟ في أي نسخٍ أو مسخ؟

كان حديثهم يأتيني تارةً بوضوح وتارةً مثل نداءات بعيدة تتماوج في الهواء اللافح الثقيل.

لقد توقف الإحساس بالألم منذ يومين أو ساعتين أو ربما شهرين، فلقد فقد الوقت قيمته، والصرخات الأليمة المرتعشة التي كانت تهزني هزاً والرعب الذي يسبقها حلت محلها نظرات أعرف أنها ترتسم على وجهي بلهاء.. لا مبالية...

- "ألن تجيب أيها الخبيث ابن الخبيثة؟ ألمَ عقرتها وأنزلت علينا العذاب المقيم؟؟"

- "ماء!"

- "هنا لن تجد غير التراب نحشو به فاك، أما "هناك" فجزاؤك الحميم المسنون..."

....

كان القمر في يومه الأول ليلة ساقوني الى نادي السادات العظام. لم أبصر في ضوء المشاعل الخافق غير عمائمهم واللحى الكثة وبريق الخواتم والكؤوس الذهبية. وفيما بعد، حين تعودت عيناي على الضوء الشحيح صرت أعرف الوجوه.. كثير منهم كان من أصحابي.. رفاقي في ملاعب الصبا ومدرسة المعبد ورحلات القنص وغارات الطيش والمجون..

ما الذي غير وجوهم وكساها هذه الصلابة؟

هل قلتُ صلابة؟ لا لم تكن صلابة حقاً. كنت أقرأ فيها على الرغم من العتمة شحوب الخوف الذي لا تخفيه المكابرة.

- "أوَتدري ما صنعتَ يا شقيُّ؟ .. أوَتدري ما جنيتَ يا أشقاها؟"

- "أتمزحـــون؟" أجبـــتهم وأنـــا أتمنـــى أن تنفـــرج الأســـاريرُ وتتفجـــر الضحكات. أعني أن ينتهي هذا المزاح الثقيل.

من أين جاءتني اللكمةُ الأولى؟

.....

- " علقوهُ إذَن من قدميه"

- " كلاّ من أذنيه"

- " كلاّ من ...."

.....

لمرّاتٍ قليلة، في الأيام الأولى فقط، كنت أجيبهم بإجابة واحدة رغم اختلاف تفاصيلها، كانت الإجابةُ / السؤالُ:

- "أولم تكونوا أنتم من توسّلَ إليَّ كي أفعلَ ذلك؟ ألم ترسموني بطلاً، نبياً، صنماً لأنني الوحيد الذي أُقدِم على الواجب الثقيل، ذاك الذي كنتم ترجونه وتخشونه، ذاك الحلم اللذيذ والكابوس المرعب... ألم أحرركم كما تمنيتم؟"

- "نحن يا ابن اللخناء؟ أترمينا بدائك وتنسَلُّ؟ أنحنُ التقاة الأطهار العابدون القانتون؟! أنحنُ يا ابن السقّاء الأحدب المجذوم؟ اسقوه القارَ الحامي في الدنيا قبل أن يُسقاه في الآخرة! أحزموه في كومة

من أخبث الحطب وأشعلوا فيه ناراً نصف متقدة ليطول عليه

العذاب!"

....

مرتين فقط أبصرت امرأتي. في المرة الأولى تركونا لوحدنا. وقفت على

بعد خطوات وسألتني باكية متوسلة:

- "ألم أحذرك منهم قبل هذا؟ ألم أسألك أن ترحم نفسك وعيالك

وتهاجر في الأرض ذات الطول والعرض؟ ألم أخبرك أنهم هم

الأقوياء الأثرياء القادرون، وأن منهم القائمون على المعابد كلها،

القديم منها والجديد؟ أنظر: لقد اشتروا صكوك غفرانهم بقطيع

من الأضحيات وبليلة أقاموها في ضياء البدر الآخذ بالأفول..

وتركوك ها هنا وحدك .. تتلقى عنهم العذاب والويل".

- "قد فعلت هذا لأجلهم.. لأجل الحقول التي ديست، والأطفال الذين كانوا يشربون الماء ممزوجاً بالبول الكريه".

- "وها هم يكافئونك بطريقتهم!؟ آه لو كنتَ لي من السامعين!"

في المرة الثانية كانت أبعد قليلاً، وكانوا يمزقون عنها الثياب!

....

ثمة طنينٌ يتصاعد في أذني السليمة. دفقٌ من الماء البارد يلطم وجهي ويرغمني على أن أباعدَ بين جفوني المتورمة الثقال.. يتصاعد الطنين ويتبيَّنُ شيئاً فشيئاً. يدخلان رجلان: رجلٌ من كل معبد، أعرفهما من ثيابهما:

- "إسمع أيها الشقي.. إنها أصوات المعابد المهللة.. غدا هو العيد...

غدا ستعلِن السماءُ عن رضاها وعفوها عن الجميع ... الجميع إلا

أنت ... وغداً عند أول الفجر ستغسِلُ دماءُنحرِكَ أرضَ الساحة ما

بين المعبدين.. غداً.. غداً.. غداً...."

- "غداً هو العيد.. لقد اختفت آلامي!"

٢٠٠٨

رائحة البطيخ

صبيان كانا، في التاسعة عشرة من العمر والثامنة عشرة من العمر، في الصيف.. في آب بالتحديد.. في سيارة "واز" متهالكة بغطاءٍ قماشي مرقع.. على الطريق اللاهب بين الإسكندرية وبغداد. كانا عائدين من العمل الشاق الذي يبدأ في الخامسة صباحاً برحلةٍ مشابهة ولكن من بغداد الى الإسكندرية.

صبيان كانا... أنهيا للتو دراستهما الثانوية.. يعملان في هذا المشروع الكبير كمساعدين للكهربائي.. يثقبان السقوف المسلحة والعوارض الأسمنتية الصماء،يحفران الأخاديد في جدران الطابوق المالح ، يقطعان الأنابيب المعدنية ، يمدانها في شبكات تبدو كالمتاهة فوق خارطة البناء.. ويعودان والشمس تنورٌ ساخن.. في هذه "الواز" الهادرة المقرقرة التي سلمهما إياها رب العمل ليحملا فيها العدد ومواد العمل ويعودا بها في العصر .. متعبَين .. متسخين.. وسعيدين .. نعم سعيدين.. أليسا فتيين .. قويين.. في الثامنة عشرة !؟

كان يجمعهما شيء أكبر من زمالة المدرسة، فمنذ التقيا قبل أربعة أعوام عرفا أن أشياء كثيرة تقرب بينهما : أفكار مشتركة، حب للشطرنج، للموسيقى ، للقراءة، للسياسة، وتعلق بهموم الناس وأحلامهم في عالم

جميل.. "نظيف كجناح حمامة بيضاء" كما اعتاد أصغرهما.. القصير.. النحيل... الذي يهوى الشعر أن يردد.. ولهذالم يتركا فرصة ليكونا فيها معاً إلا واستغلاها.. كانا يحرصان على حضور المعارض الفنية في قاعة العرض القريبة، ومشاهدة الأفلام والمسرحيات الجديدة، والجولات الأسبوعية على مكتبات المتنبي والرشيد والسعدون. وعندما عرضت على أحدهما فرصة العمل الصيفي مع أحد أقربائه الأثرياء كان حريصاً على إشراك صاحبه معه كي يجمعا بعض النقود قبيل انطلاقتهما الجديدة في دروب الحياة.. الأول الى خارج البلاد كما كان يحلم على الدوام:

- "ربما أعمل بحّاراً مثل ابن عمتي ... لا أستقر في ميناء إلا وأرحل الى آخر ... أشرعةٌ .. وجوهٌ ..بحار.. نساء .. أغنيات.. وخمر! "

- "أما أنا فسأكمل دراستي الجامعية وسأصبح مهندساً زراعياً إذا حالفني الحظ في القبول .. سوف أتزوج من حبيبتي وآخذها الى قريةٍ نائية... في ظل جبلٍ شاهق.. نزرع فيها قطعةَ أرضٍ صغيرة.. وسأجلس في الليالي عند موقدٍ حجري أبنيه بيدي.. أقرأ.. وأسمع الموسيقى .. وأكتب الشعر.. سأكون شاعراً عظيماً كما يقول الأستاذ بشار!"

- "إذالم يحالفني الحظ في البحر سأعمل مصارعاً. ألا تقولون بأنني في وزن ثورين وقوتهما؟!"

بَلا.. قويين كانا.. فتيينِ.. في الطريق الذي بدأ للتو يفقد شيئاً من حرارته... في هذه "الواز" الهادرة، وصوت المغني الشجي يُسمع بالكاد من

آلة التسجيل الصغيرة التي شُدت بطريقة مُضحكة فوق عداد السرعة

العاطل:

... لو غيِّمتْ دنياي

... لو غيِّمت دنياي

... دِنيه انته احس بيك ... والله يا بويه !!

واستدارا عند منعطف على يمين الطريق وتوقفا عند المحل الصغير

ليبردا المحرك الملتهب ويشتريا قناني البيرة المعتادة: يسلمان "أبو ياقو"

العجوز أربع قنانٍ فارغة ويستلمان أربعا غيرها "مجرشات" وكيساً من

رقائق البطاطا.. ويتبادلان معه بعض الأحاديث الضاحكة والنكات

الفاحشة التي تدور في أغلبها عن "أم ياقو" ولسانها الطويل ومغامرات

العجوز الليلية معها. وعندما كانا يعودان الى السيارة كان حريصا على

الخروج وراءهما والتلويح لهما وهما يغيبان عن بصره:

- "الله معاكم ولدي.. توصلون بالسلامة!.. كانا يذكرانه بياقو الذي لم

يره منذ عشرين عاماً.

تثاقلا في رأس المنعطف الذي يعود بهما الى الشارع الرئيس ريثما

يخلو الطريق قليلاً فمرت أمامها عربة حمل قديمةٌ تترنح تحت حمولة

من البطيخ الأصفر المغطى بالحشائش وأعواد الريحان... هبت عليهما

رائحة لذيذة كأنها قادمةٌ من حقولٍ مسحورة.. خليط من رائحة البطيخ

والريحان ممزوجة بنسمة من هواءٍ الغروب القادم ربما من مسطح مائي

قريب. نظر أحدهما الى الآخر وأشبعا صدريهما من الرائحة اللذيذة:

- "لا تدع هذه السيارة تبتعد عنك كثيراً. سر خلفها حتى نصل الى بغداد... ضع القناني تحت المقعد حتى لا يرونها في السيطرات العسكرية.. آه من هذه السيطرات... كأننا مقبلون على حرب عالمية!"

وسارا خلفها على مهل..لم يكونا على عجالةٍ.. صبيان كانا وأمامهما العمر كله.. وتمنيا لو أن لا ينتهي الطريق... وهذه الرائحة.. آه من هذه الرائحة! وصار صوت المغني أكثر وضوحاً...

لو غيمت دنياي... لو غيمت دنياي!

❖❖❖

- "تقبّلَ اللهُ!"

- "تقبّل الله!"

وانحنى الكهلان ليلتقطا نعليهما ويغادرا الجامع.لم ينظر أحدهما الى وجه الآخر سوى لحظة خاطفة. كانا مجرد كهلين التقيا بالصدفة في هذا الجامع الكبير ليؤديا صلاة المغرب. وسار الأول وهو يلهث ومر من أمام المقهى الذي يجلس على رصيفه صديقه الموظف الصحي وسأله سؤاله المعتاد:

- "ها أبو محمد.. هل جاء دواء الضغط ؟"

- "ليس بعد"

- "ودواء الربو؟"

- "ربما بعد غد.. لا تخف.. سأحجز لك علبتين.. ولكن عليك بتجديد بطاقة الأمراض المزمنة! تفضل. اجلس قليلاً يا حاج"

- "لا.. شكراً.. سأسير الى البيت.."

ومسح العرق عن وجهه المنتفخ المزرق. ومرّ من أمام محلات البقالة.. كان اثنان من الصبية ينزلان حملاً من البطيخ الأصفر.. وداهمت أنفه رائحة لذيذة.. كأنها قادمة من زمانٍ بعيد بعيد.. وتذكر فجأةً العجوز النحيل الذي التقاه وهو خارج من الجامع... وسأل نفسه لماذا يبدو له هذا الوجه مألوفاً.. ربما رآه في الجيش؟ في البصرة؟ في مندلي؟ في الفاو؟.. أو ربما كان معه في الأسر؟لم يكن متأكداً من شيء... فعشرون سنة من الأسر قد تفقد المرء الكثير من الذاكرة !!

وخرج الرجل النحيل القصير من الجامع.. وفتح القفل عن دراجته الهوائية المربوطة الى عمود الكهرباء المائل.. وانقبض صدره حين تذكر

بأنه قد يهجر الدراجة الحبيبة بسبب آلام البواسير اللعينة... دراجته التي يحبها مثل.. مثل.. و لماذا يخجل من القول: مثل تلك الصبية التي لم تنتظره.. وفضلت ذلك الضابط الوسيم!

أطلق زفيراً طويلاً ثم أخرج مشطه الصغير ومر به على شعره الفضي وشاربه الأشيب الكث.. وامتطى الدراجة بصعوبة.. ومرّ في الشارع نفسه.. أمام محلات البقالة نفسها.. وغمرت صدره رائحةٌ عجيبة.. خليط من رائحة البطيخ.. والريحان.. وتذكر فجأةً العجوز المترهل الذي التقاه وهو خارج من الجامع... وسأل نفسه لماذا يبدو له هذا الوجه مألوفاً.. وأين يمكن أن يكون التقى به.. أيام الدراسة؟ في الجيش؟ أم يا ترى في السجن؟ ما أدراه.. فسنوات التوقيف الثلاث صارت ذكرى بعيدة.. بعيدة.. لا يريد أن يتذكرها.. ولا يريد أن يتذكر تلك الورقة المشؤومة

التي وقعها بيده الراجفة وأخرجته من الموقف الى المعهد الزراعي.. ثم الى جبهات الحرب.. وأخيراً الى سوق الدواجن حيث كشكه الحقير..لم يكن متأكداً من شيء.. لكن حزناً مريراً غمر قلبه واغرورقت عيناه بالدموع من دون سبب ظاهر.. ورنت في عقله أغنية بعيدة.. أغنية ظن أنه نسيها منذ زمن طويلٍ طويل.. وهناك أيضاً... ربما على مبعدة أمتار قليلة.. كان صوت شجيٌ يملأ ذاكرة الرجل الآخر... وانفرطت من عينه دمعةٌ مفاجئة...

لو غيمت دنياي

لو غيمت .... دنياي !

٢٠٠٩

يومٌ في حياة السيد حسن عبد اللّه

(١)

خرج السيد حسن عبد الله من بيته مغموماً منقبض النفس. لقد أمضى الظهيرة في قيلولة مضطربة استيقظ منها أكثر تعباً وقلقا مما كان فيه قبلها. كان قلقه قد بدأ في الحقيقة في وقت سابق، ربما منذ الصباح.. أو منذ الليلة البارحة .. وربما قبلها بليلة أو ليلتين. وعندما عاد بذاكرته الى الوراء اكتشف أنه، أي ذلك القلق اللزج المقرف، ربما يعود الى

زمن أبعد بكثير: سنتين.. ثلاث .. عشر .. منذ الطفولة ؟ .. ربما منذ أن

كان جنيناً، أو نطفة .. من يدري ؟

لكنه يدري ما السبب المباشر لهذا الغم الذي يعتريه ويلازمه.. إنه

المال ، المال اللعين! المال.. المال.. المال..

ظلت الكلمة ترن في أذنيه. وعندما حاول أن يفر منها وجد نفسه يردد

مرغما :

Money money money

Always money

It `s a rich man's world.

لم يكن متأكداً من كلمات الأغنية القديمة لكنه كعادته إزاء كل أغنية أو قصيدة تفلت أجزاؤها من ذاكرته راح يقنع نفسه بأن الكلمات التي يرقعها بها هي الأصلح والأجمل حتى إنلم تكن الأقرب الى الحقيقة.

وسرعان ما ضجر من الأغنية وحاول الخلاص منها، لكنها ظلت تلاحقه وترن في رأسه.

- "أفكار اجترارية"

قال لنفسه بصوت مسموع، ثم التفت حواليه خشية أن يكون أحد من أهل الحي قد رآه يكلم نفسه ..لم يكن هناك من أحد.

- "أفكار اجترارية ، تسلطية .. أف !" همس ثانية.

وتذكر أنه قرأ شيئاً عن هذه الأفكار الوسواسية في كتاب لعلم النفس قرأه – أو بالأحرى قرأ نصفه– قبل أسابيع ، ثم وعد نفسه بإكماله في وقت قريب.

ومضى يستعرض الكتب الكثار التي قرأها الى النصف ، ومشاريع الكتب و"الدراسات" و"الأبحاث" التي كان يطلق العنان لخياله في رسمها ، ثم سرعان ما تذروها الريح .

ـ "سأحاول إصلاح كل شيء، لا تنقصني الأفكار الكبيرة، المسألة مسألة وقت، إضافة الى بعض الجَلَد والمثابرة والتفرغ .. آه لو كنت متفرغا!"

- في الذكرى السنوية لرحيلي

وحاول أن يرسم في خياله صورة الإنسان "المتفرغ" الخارق، ورأى نفسه في هيئة "زرادشت" الصاعد الى الجبل أو "بيدبا" الحكيم، وارتسمت على شفتيه ظلال ابتسامة رثاء لهذا العلم الغارق في الرذيلة والشهوات..

Money .. money .. money

Always money

تجاويت أصداء الأغنية في رأسه كضربات مكتومة لمطرقة من مطاط..

"اللعنة !" وأطلق شتيمة رهيبة..

كان الزقاق المترب الطويل، الخالي تقريبا في هذه الساعة من الظهيرة، يوشك على الوصول الى استدارته الأخيرة قبل أن يداهمه الشارع المركزي للمدينة. توقف قليلا وأعاد إدخال ذيل القميص الخارج

من تحت حزام السروال ثم انحنى وسوى جوربيه ليخفي الثقبين الكبيرين في كعبيهما.

- وهذه أيضا حركات اجترارية" قال في داخله.. وسلَّمَ نفسه لقدميه.

الصرير الأجش لأبواب الدكاكين التي تفتح أشداقها نصف الدرداء ودوامة من التراب الساخن وأكياس النايلون الممزقة رحبت به فاعتصره إحساس أليم بالعزلة والصغر.

أحس أنه يكره هذا الشارع، يمقته ويود لو ابتلعته قنبلة نووية.. لقد صار هذا الشارع جزءً بغيضاً من حياته منذ أن ألقى آخر أحلام شبابه في مزابله. غير أن إحساسه بالمكانلم يكن واحداً في كل الأوقات: ففي الليل - وهو يعني في هذه المدينة الدقائق الأولى بعد الغروب- حين يكون صرير أبواب الدكاكين أكثر سرعة وتوتراً وحين يهرع الناس الى بيوتهم هاربين

من الغيلان اللامرئية المرعبة التي تملأ الأرض والهواء، فيتنفسون الصعداء ويقفلون الأبواب خلفهم مرة ومرتين.. وحين لن تجد في هذا الشارع المزدحم قبل ساعة واحدة غير أكوام القمامة والهياكل الحديدية والخشبية لعربات الباعة المتجولين والقليل من الكلاب السائبة الهزيلة والحارس الليلي العجوز الذي يسعل أويحدث نفسه ويلملم من الأرض بقايا أشياء متروكة قد ينتفع بها.. في هذا الوقت بالذات يحلو لـ"أبو فليحة" كما اعتاد أصدقاؤه مناداته منذ صغره أن يتجول متمهلاً وهو نصف ثمل- إن أسعفه الحظ- أو غارق في حوارٍ داخلي "على مستوىً عال".

- "مستوىً عال .. مستوى نعال.. مستوى نعال متهرئة" دمدم مغيضاً "لا فرق"

عند أول بائع للفاكهة توقف وسأل عن الأسعار – يفعل هذا مرتين في اليوم- فأجابه البائع دون اكتراث، ولم ينتظر هو الآخر كثيراً لسماع الجواب. ثم توقف طويلاً عند بائع الألعاب المستعملة وتلمّسَ الأوراق الرطبة المجعدة القابعة في جيب سرواله وقرر تأجيل شراء أي شيء الى "فيما بعد".

وهذه الـ "فيما بعد" كانت تبدو له أحياناً مثل ترياقٍ سحري.. بل إنه كان أحياناً يسميها "زهرة اللوتس التي أنامت رفاق "يوليسيس" وأنستهم آلامهم والحنين الى أوطانهم".

لكنها لن تجدي نفعاً هذه المرة: فعليه اليوم أن يعود بشيء للبنتين والولد مهما كلف الأمر.. لقد وعدهم بهدايا النجاح، وقد فعلوها وبتفوق أثار حسد زملائهم وغيظ أهليهم المترفين..

- "أذكياء مثل أبيهم!" قالت زوجته بغنج وهي ترسل له قبلةً في الهواء.

وغمرته النشوة.. وتذكر أمجاده المدرسية ووقوفه في ساحة المدرسة كل خميس وهو يشعر بالدوار اللذيذ حين يؤدي تحية الكشافة ويقف مستعداً شامخاً بالشريط الأحمر المثبت بالدبابيس فوق قميصه الأبيض الناصع ليقرأ تحية العَلَم.

- "فارس الصف.. تصفيق، الأول على المدرسة.. تصفيق، رئيس فريق الكشافة.. تصفيق، الفائز بمعرض رسوم مديرية تربية...تصفيق.. تصفيق.."

- "آآآه !" ندت منه تنهيدة طويلة وتساءل مع نفسه للمرة المليون:

- "هل كنت مخطئاً؟ هل كان القدر المحتوم يمضي بي نحو ما أنا عليه الآن أم إن الخطأ كان خطأي؟لمَ لم أهاجر عندما سنحت لي الفرصة في أول أيام شبابي؟لمَ جبنت عن الهرب من الجيش مع رفيقي "عادل" الذي عبر الى الجهة الأخرى من الجبل ليظهر بعد سنتين ممتلئاً معافى مبتسماً بصحبة شقراء فارعة الطول في الصورة التي أرسلها الي من السويد؟ ولم رفضت في استعلاء

عرض عمي أن أعمل معه في التجارة وأغلظت له القول واتهمته

باللصوصية؟ ... والسياسة.. آخ ... ألعن أبو السياسة!"

- " حسن..! حسن..! .. أبو فليحة !"

أخرجه النداء من مونولوجه المكرر. كان المنادي "ميران" المصور (أو

ميران الفاشل كما يداعبه أصدقاؤه) وهو يحمل دلوا من الماء يرش منه

على الرصيف الملتهب وقد لف على رأسه منديلا مبللا معقودا من زواياه

الأربع.

- "عَمّي، الله أكبر من السلطان! ألا تسالم على الأقل؟"

توقف وعبر الى الرصيف المقابل ، كان بحاجة الى الثرثرة.

- "ها يا فاشل ، كيف أنت ؟ أما زلت حيا ؟"

- "نعم ، مع الاعتذار الشديد لبقية الكائنات الحية! تعال.. إجلس قليلا. فيم الاستعجال؟"

- "أريد أن أفتح المحل مبكرا هذا العصر..لم يدخل لي زبون واحد منذ يومين"

- "وأي أعمى قلب يريد أن يحطم جهازه على يديك؟"

- "أسكت فاشل، أنا على الأقل مهندس وشهادتي الجامعية بطولك"

- "شهادتك قطعها ولف بها "حب رقّي". أم هل أخبرك بمكان أفضل تحشرها فيه؟"

كان يعرف أنه لا يستطيع مجاراة ميران في السخرية والتلميحات الفاضحة فاكتفى بضحكة مستسلمة ودخل المحل وأخرج منه منضدة صغيرة ثلاثية الأرجل وضعها في فسحة الظل الرفيعة التي كونتها المظلة

المعدنية للدكان وجلس يمسح العرق. أما الفاشل فقد ظل يرش الماء وهو

يدمدم:

- "شهادات، دراسة، كليات. وما هي النتيجة؟ عندي على حائط " الهول

" أربع شهادات مؤطرة جميلة لأولادي الأربعة، ولكن أين هم الآن ؟

ليبيا .. اليمن.. هولندا ..أوزبكستان! سأفتح بهم فرعاً للأمم

المتحدة!"

- "إحمد ربك أنهم بخير ويرسلون اليك الأوراق الخضر المشتهاة"

- "لعنة الله عليهم وعلى أوراقهم! ألهذا ربيتهم؟ من يدفنّي غدا إذا

مت ؟ ومن سيقيم عزائي؟"

- "هذه بسيطة! فقط توكل على الله وسترى ماذا يفعل "خويّك"!

- "وماذا ستفعل أيها المفلس؟ تذبح عجلاً من كارتون على روحي؟"

- "لا سأوزع ساندويشات همبرغر"

- "إجعلها فلافل يرحم والديك. فهذا أصلح لصحة جيبك"

- "وصحة بطون الحاضرين التي اعتادت على الناشف. الفاتحة على روح المرحوم ميران ابن شكرية الملقب بالفاشل .. آمين!"

ومضت نصف ساعة في ثرثرة اعتادا عليها ..

(٢)

قلنا أن للمدينة شارعاً مركزياً هو سوقها وعصب حياتها حيث تتشابك المئات من العربات ومحلات البقالة والقصابة والنجارة والحدادة والخياطة وبيع الحبوب والأعلاف والأصواف والطيور والتسجيلات والألعاب والقرطاسية والذهب والعطور والأزياء والكحول والصيدليات

والمطاعم والمدارس والجوامع وعيادات الأطباء ومكاتب المحامين والمكتبات والمقاهي ومواقف السيارات في تشابك عجيب وفوضى تراكمت سنة بعد أخرى. وقد جرت عادة الناس على تقسيم هذا الشارع الملتوي الضيق حسب التقاطعات التي كانت فيما مضى ساحات دائرية صغيرة مزروعة ببعض العشب والأزهار ثم اختفى أكثرها وصار جزءً من حوض الشارع و لم يبق لها من أثر سوى أسمائها القديمة: "الفلكة" الأولى.. "الفلكة" الثانية.. "فلكة الكراج".. "فلكة" المصرف .. الخ.

كانت ورشة السيد حسن عبد الله كما قد يتوقع القارئ تقع في "الفلكة" الأخيرة، حيث الإيجارات التي يمكن تحملها، وهناك حيث تقف السيارات الذاهبة الى القرى وحيث يقع مركز قديم للشرطة ومحطة

قطار مهجورة وعدد من الدكاكين التي بنيت حديثاً على عجل.. نجاران أو ثلاثة، محل لتصليح الأسلحة.. ومحلات التصليح والأدوات الاحتياطية لكل شيء..

وصل قريباً من ورشته فلاحظ أن المكان شبه مقفر والمحلات مقفلة، فعرج على مقهى "سلمان أبو العرق" الشاب الأسمر المكتنز حليق الشاربين والذي كان يبيع المشروبات الكحولية خلسةً للمعارف والأصدقاء، وسأله قبل أن يلقي السلام:

- "ها سلمان شكو ؟ خير.. أشوف المحلات معزلة ؟"

- "منين يجي الخير ؟ أهل الضرايب كبسوا المنطقة من جديد .. والجماعة كالعادة .. عزلوا .. انطوهه اللهيب!"

تردد قليلاً بين العودة الى البيت والجلوس في المقهى لكنه غير رأيه

ومضى نحو ورشته..

- "هاي وين؟" ناداه سلمان "وين رايح ؟ ما تخاف الجماعة يقفصوك؟"

- "يمعود .. المفلس بالقافلة أمين!"

ولم يكد يتوقف عند المحل ويهم بالانحناء لفتح أقفاله حتى وقف

على رأسه مأمور الضرائب الذي كان على ما يبدو غريباً عن البلدة

فتظاهر السيد حسن بأنه ينحني ليشد حذاءه .

- "أهذا محل حسن عبد الله ؟"

- "نعم ، هو"

- "هل أنت السيد حسن؟"

- "كلا..."

- "هل تعرف سبب إغلاقه المحل؟"

- "والله يا أستاذ أنا أيضاً محتار.. عندي تلفزيون عاطل جلبته اليه منذ شهرين وكلما جئت من أجله وجدت المحل مقفلاً.. يبدو بأنه قد سافر أو شيء من هذا القبيل"

- "يبدو أن جميع أصحاب المحلات قد سافروا أو أخذتهم مصيبة ما! إذا رأيته فأخبره بالله عليك أن يراجع دائرة الضريبة في أقرب وقت"

- "تدلل أستاذ !.. ألن تعودوا ثانية؟"

- "كلا .. هل تظن أن لا عمل لدينا سوى ملاحقة هؤلاء المتهربين في الصباح والمساء؟"

وأضاف بنبرة تهديد وقد أحس أن محدثه قد يكون واحدا من هؤلاء:

- "على كل حال هم الذين سيخسرون عندما تتراكم عليهم الضرائب

ويأتون في العام القادم مسخمي الوجوه ليتوسلوا بنا!"

- "الله كريم". ثم أضاف مع نفسه:

- "روحة بلا رجعة! حتى السنة القادمة سيكون واحداً منا قد مات: أنا

أو الحمار أو الملك!"

(٣)

لم تمض دقائق حتى دخل أول زبون.. أول زبون حقيقي منذ يومين، فأستبشر السيد حسن خيراً رغم معرفته بأنه ليس ممن يخرجون الدينار بسهولةٍ من جيوبهم -هذا إن وجد بالطبع؛ فالأستاذ عبد القادر معلم قديم يعاني -مثله- من إفلاس مدمن اضطره برغم مرضه وتاريخه

الطويل وشهرته كواحد من أقدر المعلمين وأكثرهم ثقافة الى الاشتغال عاملاً يومياً في معملٍ للثلج من الغروب حتى الفجر. لكنه كان مختلفاً هذه المرة:

- "خذ هذا الراديو التاريخي وحاول أن تصلحه هذا اليوم.. لا تهم الفلوس.. فقط أريد إصلاحه اليوم حتماً!"

- "خيراً أستاذ عبد القادر! ما هذه اللهفة على الراديو؟ هل سيذيعون خبر تعيينك سفيراً في الدنمارك؟!"

- "من؟ أنا ؟ .. أتفه مخلوق في ما بين النهرين ؟ .. لن يعينني أحد فراشاً في سفارتنا في عفك!"

- "ولكنك لستَ تافهاً في نظرنا.. أنتَ أستاذنا الجليل.. يكفيك فخراً

أنك من ذلك الجيل العظيم.. جيل الإضرابات والتظاهرات ونقرة

السلمان"

- "البركة بكم .. أنا أشعر بأنني صرت جزءً من الماضي.."

- "يعطيك الله طول العمر! ولكنلم تقل لي يا أستاذ: لماذا الاستعجال

على الراديو؟"

- "أريد أن أتابع الأخبار.. يقولون بأن بوش قد يعلن الحرب لإطاحة

صاحبنا"

- "يا معود .. لا تصدق بأنهم سيطيرونه.. هذا خادمهم المطيع .. ألم

تكن تقول ذلك؟"

- "نعم.. ولكنه صار "إكسباير"..لم يعد يفدهم في شيء.. الله يرحمك خروشوف.. آخر زمان .. صرنا ننتظر الفرج من معقل الإمبريالية العالمية! المهم..نحن مقبلون على أيام عصيبة عجيبة غريبة.. لا أحد يدري ما الذي سيحدث بالضبط.. لا تؤخر الراديو.. أريده اليوم.."

- "حاضر أستاذ" وأضاف بتردد واستحياء "ثلاثة آلاف!"

كان الجهاز متهالكا ولهذا أراد أن يقول خمسة لكنهلم يكن واثقاً من ردة الفعل، ثم إنه كان يحب هذا الرجل!

- "حسناً .. ثلاثة آلاف" ومد يده الى جيبه "هاك، سأعود عند الغروب.. أو أرسله لي مع سلمان".

وقبل أن يخرج توقف واستدار بجسمه المتعب ورفع سبابته وألقى لاهثا

كعادته بيتاً يليقُ بالمناسبة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

ولم تمضِ دقائق حتى دخل الزبون الثاني. كان أعرابياً حديث نعمة

كما ظهر من لهجته المتعالية ومن سيارة "البك أب" الجديدة التي أوقفها

أمام المحل وقد حشر حوضها الخلفي بأكياس الخضار والرز والسكر

والزيت واللحوم ناهيك عن حفنة من النسوة المتشحات بالسواد.

- "لابد أنه واحد من شيوخ هذه الأيام".

قال مع نفسه. كان واحداً من القلائل الذين ظلوا محافظين على

استخفافهم بالقرويين. الاستخفاف الذي كان حتى ثلاثين عاماً تقليداً

يميز أهل المدينة الأصليين، الفقراء منهم والأغنياء. لقد كانوا يشعرون بالخطر والحنق من غزو القرويين (العُربان كما يسميهم) بفوضاهم ولهجتهم ونفاياتهم وسياراتهم وعاداتهم ونجمات الضباط التي تلمع على أكتاف أبنائهم، لهذه المدينة الصغيرة النظيفة الموغلة في القدم التي يعرف المرء فيها كل سكانها بالاسم والكنية واللقب واسم الشهرة (الساخر في الغالب) حتى رابع جد.

- "لا رحمة بالعُربان" كان يردد في كل مرة تسنح له الفرصة بالانتقام من أحدهم، بل كان يتلذذ حين يرى المشهد المتكرر لاثنين من الأعراب وهما يتعاركان حتى تسيل منهما الدماء.

- "بل قل لا رحمة بالكولاك" صحح له الأستاذ عبد القادر ذات مرة "فقراؤهم ليسوا مثل أغنيائهم".

هز رأسه موافقاً لكنهلم يقتنع في داخله برأي الأستاذ. فكان يردد مع نفسه "لا فرق بين أعرابي وأعرابي إلا بدرجة الخبث!". عرف علة الجهاز فوراً. كان تصليحه سهلا لا يستغرق سوى دقائق، لكنه بدأ هجومه على "الكولاكي" القادم مستخدماً كل ما في قاموسه من كلمات عصية على فهم الأخير:

- "جهازك ديجيتال ويصعب تصليحه. لن يكتمل قبل يومين. اللاين محترق وطبلة الآيسيات معطوبة إضافة الى عطل الكوندينسر. أظن أن الهرتزية عندكم غير مستقرة!"

وتزعزعت دفاعات "الإعرابي" أمام هذا السيل من المصطلحات، ورضي بالأجر الذي طلبه بعد مساومة قليلة على غير عادته، بل وافق على

مضض على دفع نصف الأجرة مقدماً لشراء الأدوات الاحتياطية المزعومة!

(٤)

في ساعته المعتادة دخل الأستاذ إبراهيم، الشاعر والمخرج المسرحي المعتزل، لاهثاً، ثائراً ساخطاً كشأنه دوماً.. إنه الربيع حيث يشتد عليه المرض. سحب علبة دواء الربو واستنشق نفساً عميقاً، ولم يكد يسترد أنفاسه حتى أشعل سيجارة وراح ينفث الدخان وشرع بالتنفيس عن غضبه الدائم من كل ما حوله! كان يشعر بالارتياح في هذا المكان، ومع هذا الصديق الذي يستطيع التحدث معه بما لا يستطيع البوح به مع غيره.

وكان السيد حسن قد أنهى تصليح التلفزيون وتركه مفتوحاً وراح يتأمله في حسد وإعجاب:

- "أولاد الـ... ! لن أستطيع شراء جهاز كهذا بعد مئة سنة! "

- "ما هذا؟"

- "تلفزيون يعود لأحد العُربان الأغنياء"

- "لا أقصد هذا بل القناة المعروضة"

- "إنها قناة الـ.. قناة جديدة"

- "أجنبية؟"

- "نعم، إنها تبث من جارتنا اللدود دولة..... "

- "وكيف تجرؤ على فتح قناة لدولة معادية، هكذا وفي وضح النهار؟

أتبحث عن الهلاك؟"

- "وهل ظلت حولنا دولة غير معادية؟! لقد مل الناس من رؤية القائد الضرورة على الشاشة أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم.. بالأمس رأيتهم يشاهدونها في مقهى "أبو عمار".

- "ولو. الحذر واجب. ربما يكون هذا فخاً. مقهى "أبو عمار" يكتظ بالمخبرين الذين ينتظرون تعليقاً أو زلة لسان كي ليرموك وراء الشمس. وأبو عمار نفسه مجرد قواد، وكيل أمن، اسألني أنا!"

- "إنها قناة بائسة على أية حال، ولكن ماذا يفعل الناس: من قلة الخيل!"

- "ومَن هذا المتحدث؟"

- "إنه ..... " وأخفض صوته بشكل آلي، كمن يشعر بالخطر "إنه من قادة المعارضة"

- "ماذا؟" تساءل الأستاذ إبراهيم ساخراً، هامساً كمن أصابته العدوى

"وهل هناك معارضون أحياء؟!"

- "هذا على الأقل واحد منهم!"

كان الرجل الذيلم يسبق لأحد منهم أن رآه يتحدث بثقة بالغة عن

"مرحلة ما بعد الدكتاتور".. ثقة أشعرتهما بمزيج من النشوة والخوف

والترقب. وتمتم الأستاذ إبراهيم وكأنه يحدث نفسه:

- "هل سيفعلونها هذه المرة؟ ربما يفعلونها. لكنه قد ينجو منها مرة

أخرى، إنه إبليس، قواد، كيفما ترمه ينزل على قدمه!"

كان المذيع الأجنبي الذي يحاور الضيف يلعن النظام ورأسه ويهلل لقرب سقوطه مرة ويشتم الغزاة القادمين ويتوعدهم بالويل والثبور مرة أخرى فعلق السيد حسن ساخراً:

- "صاحبنا مثل المشتهية المستحية! وكذلك مواقف كل جيراننا الألداء"

فأجابه الأستاذ إبراهيم بلغة فصيحة وكأنه يقرأ في أحد كتب التراث:

- "قالوا للكلب لماذا تعوي؟ قال كي أخيف. قالوا و لماذا تضرط قال: لأنني أخاف!"

- "ماذا تتوقع؟"

- "لا أدري، الأمر محير"

- "كيف لا تدري؟" سأل السيد حسن محاولاً إثارته وممازحته "ألستَ شاعر الحزب والثورة؟!"

- "لستُ شاعر الخراء! عندما يجوع التاجر لا يسأل كثيراً عن عفاف زبائنه. أنت تعرف الظروف"

- "لن تقنعني بتبريراتك. وحتى لو اقتنعت بها فهل سيقتنع الآخرون.. الضحايا وأهاليهم يعتبرونكم شركاء في كل شيء.. أنتم وأقلامكم ... السيوف المشرعة بيد القائد المجاهد حفظه الله!" ثم أضاف بنبرة جادة وصادقة:

- "أنا خائف عليك حقاً"

وكان في كلامه شيء من المنطق، وتذكر المصير المرعب الذي آل اليه صديقه الشاعر "الشعبي" عندما وقع بأيدي المنتفضين قبل بضع عشرة سنة وشعر بانقباض في صدره فتناول نفساً آخر من دواء الربو:

- "آه، أقلامنا! أقلامنا! أظن أنهم سيبرونها ويدسونها في مؤخراتنا! لكن لا تخف؛ لقد أعددت دفاعي: كتبت اعتذارية من ثمانين بيتاً!"

- "لمن؟"

- "للناس، للشعب، لمن سيأتي بعد هذا" وأشار الى الرجل الذي تحتل صورته نصف الصحيفة المرمية على إحدى المنضدات.

- "وماذا لولم يكن القادمون يفهمون الشعر أويجيدون العربية؟"

- "ساعتها سألوي فمي وأقول لهم" وراح يتحدث بلغة انكليزية ساخرة زادتها الركاكة طرافة:

-Please mister shit, understand me. I was hungry, fife childrens!

- "إذن ستواصل العبث؟"

- "وهل لي خيار آخر. صدقني يا عزيزي حياتنا كلها عبث في عبث ما دمنا نعيش في هذه الرقعة المجنونة من الأرض. وسواء كان "أبو فرات" يقصد هذا المعنى أو غيره فسوف أردد معه":

خذ بعرس القرود دفّاً وغنّي

فأجابه السيد حسن من فوره وكأنه شرع في مطاردة شعرية استعد لها:

- "وقُل الأهلُ أنتمُ والمَحَلُّ!"

- "صِيدُ انسٍ أنتم وأقيالُ جنٍّ!"

- "جنّةُ الخلدِ دون قردٍ تُملُّ!"

وضحكا من القلب.

- "آها. ابن الحلال بذكره!"

صاح السيد حسن هازئاً. كان الداخل هو وجدي.. "الرفيق وجدي" كما يسمي نفسه بتفاخر يثير السخرية. كان شاباً فقيراً أميا، ساذجاً الى درجة البلاهة، يعمل فراشاً في مكتب مدير البلدية واعتاد على أداء الخدمات البسيطة للناس بعد ساعات العمل مقابل بضعة دنانير ولسانه لا يكف عن الترديد "نعم عمّي، صار عمّي، تأمر عمّي" الى أن أقنعه أحد المراهنين الخبثاء ذات يوم بأنه يمكن أن يرتقي في سلالم الحزب والسلطة إذا ارتدى الزي الزيتوني وحمل مسدساً ووضع الشارة المذهبة التي تحمل صورة القائد على صدره. والغريب أن تلك النبوءة تحققت الى حد ما

وبسرعةلم يتوقعها ذلك الخبيث الذي صار عليه – وهو حامل

الماجستير - أن يتلقى الأوامر الحزبية ويحضر الاجتماعات التي يترأسها

"الرفيق وجدي" لا غير!

- "خيراً ان شاء الله. هل كنتما تتحدثان عني؟"

- "نعم. كان الأستاذ إبراهيم يقول أن بيت "أبي فرات" ينطبق عليك.

"أبو فرات".. ما لك يا رجل؟ ألا تعرفه؟"

وحكَّ وجدي قذاله كمن يحاول أن يتذكر، ثم هتف:

- "آه، أبو فرات! نعم، أعرفه! كنتُ مسئوله الحزبي أيام القادسية!

لكنني لا أعرف أين يقع بيته! ومن أين يعرفه الأستاذ؟"

- "لا شيء. لقد سمعته يقول مرة أن جنة الخلد دون وجدي تُمَلُّ!"

وضحك الرجلان فلم يجد الرفيق وجدي بداً من مشاركتهما وهو لا يفقه شيئاً مما قالاه!

- "بمناسبة القادسية وأم المعارك. كن حذرا. يقولون ان الأمريكان جلبوا معهم رادارت تكشف مثل هذه الشارات التي على صدرك وتوجه نحو حامليها أشعة ليزر قاتلة لا تخطئ الهدف!"

- "أنت تكذب، أليس كذلك؟" سأل في رعب واضح "تمازحني.... بالتأكيد تمازحني!" واستدار الى السيد حسن:

- "أستاذ حسن أنت مهندس "لَكترونيات" وتعرف هذي الأمور، هل حقا يمكنهم فعل ذلك؟"

- "أي ورأسك يا رفيق وجدي!"

- "ولو. فليفعلوا! لن يخيفونا، سنواجه صواريخهم بالحصى ونهزمهم.

نحن وبلاد القائد! في أمان الله"

- "الى أين. إجلس قليلاً!"

- "كلا. عندي خفارة حزبية!"

ومضى في الزقاق المعتم ثم التفت في جميع الاتجاهات خشية ان يشاهده أحد ونزع الشارة المذهبة بخفة وأراد رميها فوق إحدى أكوام النفايات لكنه غير رأيه ودسها في جيبه ثم تنحنح وخرج الى الشارع من الطرف الآخر للزقاق. وفي الدكان الصغير كان الصديقان يمسكان بطنيهما من الضحك!

(٥)

- "السلام عليكم. كيف حالك يا أستاذ حسن؟"

هتف الزبون الجديد بمرح قبل أن يلج المحل، ثم أضاف وقد صدم بوجود الرجل الثاني:

- "كيف حالك يا أستاذ إبراهيم؟"

- "بخير" أجاب الأستاذ إبراهيم بجفاء غير مبرر.

- "أراك مشغولا يا سيد حسن. أعود إليك غداً صباحاً"

- "لا أبداً. لستُ مشغولاً. تفضّل"

- "لا شيء مهم، أراك غداً، في أمان الله" وأشار بطرف عينه الى السيد حسن كي يتبعه الى الخارج. وعندما لحقه الأخير أمسك يده وقاده بلطف الى جوار سيارته.

- "أستاذ حسن.لم أرد أن أتحدث إليك بوجود هذا الرجل"

- "خيراً. لقد جعلتني أشعر بالقلق. ما الأمر؟"

- "آه، لا شيء. أردت فقط أن أطلب منك خدمة صغيرة"

- "تفضل، أنا بخدمتك"

- "أنت تعرف بأنني أعزك مثل أخي، أي والله. ولهذا اخترتك من بين جميع المصلحين والمهندسين الذين أعرفهم"

- "وما المطلوب مني؟"

- عندي.. عندي.. (وأكمل بعد تردد) عندي جهاز ستلايت. دش يعني. هربوه لي من الشمال. عرفت أنك عملت في نصب هذه الأجهزة

عندما كنت في الأردن.. أريدك أن تنصبه لي في بيتي في بستاني

بالقرية.

- إنها فكرة مجنونة، إسمح لي أن أقول. الأردن غير وهنا غير. هذا

أمر قد تطير فيه رقاب. لي ابن خالة في العاصمة لا نعرف عنه

شيئاً منذ أن اعتقلوه بسبب واحد من هذه الدشات حين وشى به

أحد...

- أدري (قاطعه وهو يضغط على يده) لكن الأمر يختلف قليلاً هذه

الأيام.. قبضتهم أخذت ترتخي.. إنهم خائفون.

- ولو، القطة المحاصرة قد تنقلب الى نمر!

- هل يعني هذا أنك ترفض؟ سأدفع لك ما تطلب.

- الأمر لا يتعلق بالنقود. أنها مغامرة خطيرة.

- شكراً على كل حال. ولكن أرجوك، لا تخبر أحداً بحديثنا هذا

(واستدار مودعاً)

-انتظر. قلت في بيتك بالقرية؟

- نعم.

- ألا يوجد أغراب في بستانك؟ عمال، متعهدون؟

- لا أحد.

- ومتى تريد أن آتيك؟

- غداً مع حلول الليل.

- حسناً، اتفقنا!

كان هناك شيء آخر غير المال يدفعه لفعل ذلك.. كان يريد أن يفتح

شباكاً.. كوة صغيرة في الجدار السميك.. شيئاً شبيهاً بما يفعله صديقه

"مؤيد" في مركز المحافظة القريب حين يستنسخ سراً في مكتبته الصغيرة

كل ما يصل الى يديه من كتب ممنوعة ثم يعيرها للأصدقاء .. هكذا..

مجاناً.. نكايةً وتحدياً !

.....

- "ما هذا؟ أنت جالسٌ هنا والدنيا مقلوبة في الخارج!"

صاح وليد الخطاط وقد حضر مبكراً بعض الشيء عن موعده

اليومي.

- "خير . ماذا يحدث في الخارج؟ هل جاءت الحصة التموينية؟"

- "بل قل جاءت الحصة التدميرية. الحرب ستقوم. سمعت الخبر قبل دقائق. لقد منحوا صاحبنا وأولاده إنذاراً بالرحيل خلال ثمان وأربعين ساعة وإلاّ.."

- "وإلاّ ؟"

- "وإلاّ (وتحول الى طريقة التمثيل الصامت التي يلجأ اليها عندما لا تسعفه الكلمات فأمسك بشخص متخيل ونفضه في الهواء بعنف ثم وضعه أمام قدمه اليمنى وركله بقوة مثل كرة قدم).. آآها.. وإلاّ.. الى الجحيييم سِر! ولا تلتفت يميناً أو يساراً!"

لم يبدُ التأثر واضحاً على السيد حسن، لقد كان يتوقع شيئاً كهذا منذ أيام "لكن أبهذه السرعة؟ هل ستجرى العملية الجراحية الخطيرة؟

وبدون تخدير؟ وأين كانوا طوال هذه السنوات التي أكلت أعمارنا؟ وماذا سيكون الثمن؟" وغرق في تساؤلاتٍ عميقة وهو يشد البراغي الأخيرة في راديو الأستاذ عبد القادر.

- "يا لبرودك يا أخي! وكأني أنقل لك خبر زواج ابنة عمي أبي! قم! افعل شيئاً!"

- "وماذا تريدني أن أفعل؟ سفني التي في الخليج أمنت عليها فلا داعي للقلق!"

- "سموّك تسخر أليس كذلك؟ إبق قابعاً ها هنا مع راديوهاتك المنقرضة. الحرب ستقوم وسوف يتغير كل شيء (ومضى مسترسلا) نعم سيتغير كل شيء: سوف نستطيع السفر الى كل أرجاء الدنيا، سأزور فينا التي أحبها، سأغلق محلي الكئيب وأتحول

الى تجارة القرطاسية.. (وأضاف مداعباً وهو ينظر الى أكوام الأجهزة التي يئس أصحابها منها وركام الأدوات الأسلاك وقطع الغيار المتربة) .. وستأتي أشياءلم نرها إلا في الأفلام.. أشياء مثل الهواتف النقالة وأجهزة استقبال الفضائيات وخدمات الإنترنت الحرة، وعندها... عندها سنرميك في الزبالة.. أنت وأجهزتك التراثية!"

- "و لمن ستترك لافتات التعزية التي تعيش من خطها؟"

- "ربما أتحول الى خط اللافتات الانتخابية للأحزاب المتنافسة. يقولون أنهم سيجلبون الديمقراطية أليس كذلك!"

- "لا داعي للعجلة. أظن أنك ستستمر في خط لافتات التعزية فترة طويلة أخرى. إنها الحرب كما تقول، ولكل شيء ثمنه"

- "وهذا أيضا حسبت حسابه. اشتريت كمية لا بأس بها من الأصباغ والقماش الأسود"

- "يا لك من تاجر حرب بشع!" قال السيد حسن ضاحكاً.

- "ويا لك من إنسانٍ حالم قديم. أظن أنك تحمل جينات وراثية ضد الثروة والنجاح! الكلام معك بلا طائل. سأذهب للبيت"

- "انتظر. سأغلق المحل ونذهب عند سلمان لنشرب علبتين"

- "هذا هو كلام العقلاء الحلوين! عاش سلمان.. ولتسقط أمريكا!"

(٦)

حين خرجا من الركن الصغير المغطى بستارة بالية داخل المقهى، والتي يسميها سلمان وفقاً لمزاجه بـ "ركن الأمراء" أحياناً و"قرنة المعقدين" أحياناً أخرى، ويعني بهم تلك العصبة الصغيرة من الشعراء والأدباء والـ"بطرانين" الذين يتخذون منها مكاناً لشربهم ونقاشاتهم المطولة.. حين خرجا منها شاهداً سلمان وهو يقضم أظافره ويبصقها وينظر بقلق الى الخارج.

- "ها سلمان، ما الخبر؟"

- "إنهم هؤلاء الملتحين مرة أخرى.. أهل الدشاديش القصيرة. كان اثنان منهما يقفان على الرصيف المقابل ويتحدثان وهما يشيران

الى المقهى وعيونهم تقدح بالشرر. بالأمس مرا من هنا وتعمدا أن

يسمعاني حديثهما: الى متى السكوت على هذا الفسق والفجور

والعصيان؟يحول مقهاه الى وكر للخمارة والكفرة. فأجابه الثاني:

لم يبق الكثير، قريبا سيُنبحون كالنعاج!"

- "يا ستار استر. وماذا فعلنا لهم؟" تساءل وليد في قلق.

- "نـ ..نا أخواتهم! في المرة القادمة سأفتح رأسهم بإحدى القناني!"

- "دعك منهم. لا تدعهم يستفزوك. هم في حالهم وأنت في حالك"

نصحه السيد حسن.

- "لا علاقة لي بهم. أنا رجل مسالم وعلى باب الله. تعرفني يا أستاذ.

لكنهم يتحرشون. طلعت أظافرهم وصاحبنا بعده موجود.. ترى

ماذا سيفعلون إذا خلا لهم الجو؟"

- "يا ساتر استر.. يا ساتر استر (ردد وليد وتلفت يميناً ويساراً وهو يخرج) .. في أمان الله!"

ومضى على عجل، ثم لحقه السيد حسن بعد قليل بعد أن دفع الحساب واشترى (ربعاً) من العرق وضعه في جيب معطفه ومضى متمهلاً نحو بيته..

كان الكثير من المحلات والمخازن مفتوحا على غير العادة في هذه الساعة.. وكانت الشاحنات الصغيرة والكبيرة تفرغ المحلات من محتوياتها. فتوقف أمام أحدها:

- "مرحبا عمّار كيف حالك؟ ماذا تفعل.. الى أين تأخذ بضاعتك؟"

- "الى البيت. المكان هناك أكثر أمناً. المرء لا يدري ماذا سيحدث، ربما تعم الفوضى وتنهب الأسواق. الاحتياط واجب"

- "بكم هذه اللعبة؟"

- "أية لعبة؟ هذي؟"

وأومأ بوجهه وهو يحمل صندوقاً ثقيلاً الى الشاحنة.

- "نعم. وهذي .. وهذي أيضاً"

- "عشرة"

قال وهو يواصل التحميل.

- "سأعطيك سبعة للثلاث"

- "حسناً"

- "وعندك عطور نسائية؟"

- "عطور؟ هنالك، على ذلك الرف. أبقيت بعضاً منها هنا. اختر ما تشاء، الواحدة بخمسة"

- "يصبح الحساب إذن عشرة"

- "يا له من حساب! حسناً يا مولانا كما تريد!"

وكانت رغم هذا صفقة رابحة، في هذا الوقت وهذه الظروف. وهمس مع نفسه:

- "يا له من رجل غريب الأطوار. الناس تجمع الرز والزيت وهو يشتري الألعاب والعطور!"

كان بائع الفاكهة، وقد رأى المحلات المفتوحة والكثير من الناس، وبعضهم وصل بالفعل هاربين من العاصمة، وهم يروحون ويجيئون

حاملين ما أمكنهم شراؤه من مواد تموينية، قد بقي هو الآخر أمام عربته

التي أضاءها ببضع شموع.

- "زن لي كيلوين من التفاح.. وكيلوين من الموز!"

قال السيد حسن دون أن يسأل عن السعر.

- "تأمر أستاذ!"

أجاب البقال باهتمام وترحيب وأخذ ينتقي أفضل ما عنده!

في الفلكة التي تسبق مدخل شارع بيته كان فصيل من الحزبيين

بملابسهم العسكرية الزيتونية ولفافات رأسهم الحمراء والبيضاء قد

احتلوا كدأبهم في كل المصائب، الحديقة اليابسة الصغيرة.. بعضهم

واقفين والبعض الآخر يفترش عدداً من الأرائك الخشبية التي جلبوها

من الجامع القريب.

- "السلام عليكم" القى التحية ومضى في طريقه.

- "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

أجاب الجميع بصوت مرتفع ولطفٍ غير معهود.

- "تفضل يا أستاذ حسن. اجلس قليلاً"

ناداه "الرفيق صالح" بتملقٍ واضح. كان هذا جاره الغني "الرفيق طالح"

كما يسميه سراً.. الجار الذي لم يسلم أحد من مراقبته وتقاريره الكيدية.

- "يا للأعاجيب التي يصنعها الخوف!"

قال السيد حسن مع نفسه.. ودخل الزقاق المترب الطويل.

- "يغيرون جلودهم كالحرباء.. يذهب الحكام ويبقون هم السادة.. إنه

عالمهم .. عالمهم وحدهم"

Money .. money .. money

Always money…

وعادت الأغنية لتتسلل الى رأسه فحرك يده في الهواء كمن يتخلص من ذبابةٍ مزعجة. وتحسس "الربع" المخبأ في جيبه والعطر الرخيص الذي اشتراه للحبيبة ونظر في أكياس الفواكه والألعاب التي يحملها فغمرته النشوة:

- "ربما يتغير كل شيء... ربما..."

وراح يتهادى في الزقاق وقد رنت في ذاكرته بشكل مباغت قصيدة كان قد سمعها من أحد الأصدقاء...لم يكن متأكداً من الكلمات لكنه راح يتلو كمن يقرأ في كتابٍ مفتوح:

كلوا كثيرا يا صغاري

أيتها الفراخُ المُزقزِقات

ما زلتُ حياً

حاملاً .. غيرَ محمول...

❖ ❖ ❖

قد يصيرُ العرقُ عسلاً

أما الدمُ فلا ...

زقزقوا يا صغاري ...

لا تأبهوا لنصائحِ المُقتِرين ...

❖ ❖ ❖

ما زلتُ حياً ...

أتهادى في الغروب..

صوبَ زُقاقِنا الصادحِ الفقير

حاملاً كيساً من القوت

وقبضةً من الحلوى

و"ربعاً" مُخَبّأً تحتَ القميص !

❖ ❖ ❖

كلوا كثيراً يا صغاري

واملأوا البيتَ بالضجيج

ما دُمتُ حياً ....

حاملاً غيرَ محمول !

٢٠٠٩/٧/٢٢

لعبة الخُطّار

في ذكرى "الخال رضا" .. الرجل/ الملاك

- "دَگ ... دَگ .. دووگ!"

- "منو!"

- "آآآآآني!"

- "جِق فِق! هلا بيكم عيني! تفضلوا!!"

هكذا كانت تبدأ اللعبة.. المرة تلو المرة: يعتمر الصبي "سدارة" الجد
البنية القديمة ويضع على كتفيه سترته الكحلية ذات النقاط الحمر
الشبيهة بحب الرمان فتنسدل على جسده الصغير حتى تصل الأقدام
ويحمل كيساً من الورق الأسمر يضع فيه برتقالة أو تفاحة ورغيف خبز
ويقف قبالةَ بابٍ وهمي ويحاكي صوت الطرقات لتسأله الصغيرة الجالسة
أمام طاقم الشاي –اللعبة وقد لفت جسدها بعبادة أمها السوداء عمن
يكون ثم تفتح الباب الوهمي محاكيةً صوت فتح الأقفال.. ليدخل
الخطار وتبدأ اللعبة .. اللعبة التي لا يملان من تكرارها رغم تبدل
الأدوار ودخول صغار آخرين من الزائرين وأطفال الجيران في بعض
الأحيان.. ضيوف شرف في لعبة الخطار...

كان العجوز راقداً على سريره النحاسي اللامع في غرفته التي يغمرها الى النصف ضوء الشمس القادم من الشباك المفتوح ..لم يكن مريضاً — هكذا قال الطبيب:

- "إنها الشيخوخة فقط .. اتركوه كي يرتاح .. كي يرحل بهدوءٍ وسلام..."

كان يصغي الى أصوات الصغار القادمة من الجهة الأخرى .. أما حفيدته التي كانت تعد الشاي للأقرباء، الذين خرجوا للتو من غرفة الجد ليجلسوا حول السدرة الكبيرة التي تفرش ظلها على الباحة المفتوحة، فلم تلح كثيراً على طفليها كي يخفضوا أصواتهم .. كانت تعلم

أن الجد لا ينزعج أبداً من أصوات الصغار مهما علت. ثم إنها كانت تعرف

أن الجد قد ضعف سمعه الى حد كبير ..

لكنه .. في هذا الصباح بالتحديد كان يسمع كل شيء بوضوح عجيب:

زقزقة العصافير .. صوت المروحة المنضدية التي تدير رأسها يميناً ويساراً

وكأنها أم حانية تطمئن على من في الغرفة .. ثرثرة الضيوف الذين

انصرفوا الى أحاديثهم المعتادة .. وصوت الصغار اللاهين تحت شباكه..

لا ..لم يزعجه صوت الصغار .. "وهل ينزعج إنسان من صوت ملاك؟!"

كان هذا ما يقوله في كل مرة يُنهرُ فيها صغيرٌ ويُطالَبُ بالسكوت لكي لا

يزعج الرجل العجوز...

وهذان الصغيران الهادئان الوديعان كانا الحلقة الأخيرة في أجيال وأجيال من الصغار الذين حملهم فوق كفه الكبيرة الخشنة الدافئة.. وقبل جبينهم .. وسمّى عليهم وعوّذهم من الحسد .. وحلق لهم رؤوسهم واشترى لهم الدمى والحلوى والثياب.. وحملهم الى مدن الألعاب ، والحدائق العامة.. ودور السينما الصيفية.. وعلى يديه ذاقوا أول وجبات الكباب عند رأس الجسر القديم .. وعلى كتفيه صعدوا ليشاهدوا مواكب "التشابيه الحسينية" في أزقة الكاظمية الضيقة وبيديه هو كان يشد أول حذاءٍ مدرسي على أقدامهم الصغيرة.. وأول شريطٍ أبيض على الضفائر الصغيرة المتأرجحة في حبور.. وأول هدية نجاح وهدية عرس.. كان أطفال الأسرة الكبيرة.. أبناء أبناء العم وأبناء العمة والخال والخالة والعدلاء

والأنسباء الأبعدين .. يعشقون هذا الشيخ القصير المفتول العضلات.. بوجهه الأسمر الذي تشابكت عليه عشرات التجاعيد وكفيه الكبيرتين الدافئتين أبداً.... وجيوبه الكبيرة التي كانت مثل مخزن لا ينتهي.. للدراهم وحبات الليمون والجوز.. وقطع الحلوى.. الحلوى ذات الرائحة المدوخة العجيبة التيلم تعد موجودة في هذه الأيام والملفوفة في ورق ملون جميل.. ورقٍ يلمع بطريقة ما عاد أحد يراها..

لكن أياً منهم.. من هؤلاء الصبية والصبايا الذين أحبهم وأحبوه.. هؤلاء الصبية والصبايا الذين يعرف أسماءهم وألقاب دلالهم واحداً واحداً..لم يكن من صُلبه؛ فهو، كما يعرف الجميع،لم يتزوج قَط.. وحتى

حفيدته هذه، التي أصر يوم ولادتها على تسميتها بهذا الاسم القديم الغريب والتي يلعب صغارها تحت شباكه،لم تكن سوى ابنة ابنة أخيه..

كان أخوه قد غاب قبل أربعين عاماً.. أخذته دورية حدودية عندما كان يرعى أغنامه على مشارف قريته النائية، ثم حملوه الى العاصمة، الى قصر النهاية.. المكان الذي تقشعر من ذكره الأبدان.. واتهموه، هو الأمي الساذج البسيط الذي تكاد تشم في ثيابه رائحة العشب والأغنام، اتهموه بالتجسس والتخابر مع دولةٍ أجنبية!

وسافر الأخ الكبير من فوره الى القرية.. وهناك وجد ابنة أخيه الوحيدة قابعة في زاويةٍ من الكوخ الطيني وهي ترتجف وتهذي من الجوع والحمى فحملها الى العاصمة، وتعهد برعايتها حتى استعادت شيئاً من

عافيتها ثم انطلق في رحلة البحث عن أخيه وسؤال هذا وذاك والتوسط

هنا وهناك حتى طلب منه أحد المخبرين الذين يترددون على القصر

الرهيب أن يكف عن البحث:

- "لقد رأيته بأم عيني .. ضربوه وضربوه وهم يسألونه عن شركائه وهو

يجيب متوسلاً بعبارة بلهاء واحدة "عمو.. الله دخيل .. عربي ما

يعرف" ثم سكت .. خمدت أنفاسه .. فلفّوه في بطانيةٍ عسكرية

وشدوه الى "بلوك" من الأسمنت ورموه في النهر... "

لم يخبر أحد بما سمع، ولم تجرؤ الفتاة على سؤاله لكنه لبست

السواد ولم تنزعه منذ اليوم.. ثم كبرت .. وزوجها العم الى عامل شهم

من أقاربه كان هو الآخر ممن شربوا من حنانه.. واشترى لهما هذا البيت

الشرقي القديم.. وزرع في "الحوش" المكشوف هذه السدرة الوارفة.. وأنجب الولدان حفنة من الأبناء والبنين.. غادروا المنزل واحداً بعد الآخر ولم تبق غير هذه الحفيدة الصغرى وزوجها المسافر وهذين الصغيرين.. آخر العنقود اللذيذ!

كانت السدرة تكبر وتكبر.. وفي أمسيات الخميس كان يشعل شمعتين ويضع طاساً فضياً مملوءً بماء الورد وبضعة أغصان من الآس في كوة صغيرة بجذع الشجرة ويقرأ الفاتحة. وحين كان الصغار يسألونه عن الشمعتين كان يجيب بهدوء:

- "هذه الشمعة لروح جدكم .. أخي المسكين"

وحين يسألونه عن الشمعة الثانية كان يكتفي بالصمت وتترقرق في عينه دمعة صغيرة فيكف الصغار عن السؤال.

لكن الكبار، الذين عاصروا الجد، كانوا يعرفون سر تلك الشمعة الثانية: إنها لـ "خانم" حبيبته.. خطيبته التي أبعدوه عنها قبل الزفاف بيومين وساقوه الى الحرب.. الى "السفربرلك" قبل سنين لا عد لها... وغاب الرجل طويلاً حتى قيل انه لن يعود.. وأرغمها أهلها على الزواج من تاجر حبوب جوال شدها –مرغمةً- على بغلته وأخذها الى حيث لا يعلم أحد.

آه يا "خانم" .. يا ذات العيون العسلية والفم الصغير الذي يبدو على الدوام وكأنه يغالبُ –حياءً- ضحكةً مجلجلةً مرحة .. كنتِ تعرفين بأنني

حـي .. وبـأنني سـأعود الى قريتنـا .. ولهـذا حـززتِ جـدائلك الشـقراء ..

وشـقـقتِ ثوبـكِ حتـى بـان كتفـاك ونحـرك الـذي مثـل قطـنٍ منـدوف ..

وحاولت أن تقتلي نفسك مـرتين .. ولهذا كان آخـر ما سمعه أهلك وأنتِ

تبتعدين :

. "سأقتل نفسي .. سأقتل نفسي قبل أن يمسسني رجلٌ آخر!"

أما هو، فلم يتزوج أبداً .. عرضوا عليه الفكرة مرة ومرتين لكنه رفض

في حزمٍ جعلهم يهجرونها ..لم يشكُ همه لأحد ..لم يثر أويحتج .. كان

عائداً من الموت .. من الحرب التي لم يكثر من الحديث عنها .. كان يرفض

الحـديث عـن وقائعهـا ومغامراتـه فيهـا رغـم انـه عـاد بإصبعين مبتورين

وندبة جرح طويلٍ غائر في خده الأيمن .. ندبةٍ لم تزده إلا وسامةً ورجولة ..

وفي ليالي العشر الأوائل من محرم، حين كان الناس يولولون أو يستمعون

في ترقبٍ وإثارة الى وقائع المعركة وتفاصيلها كان يبتعد عن الآخرين

ويجلس وحيداً.. بقميصه الأسود الذي يزيده أناقةً.. ويبكي.. يبكي

بصمت ويربت بهدوء على صدره الأشيب المقتول.. وبين الحين والآخر كان

يهمس بلوعةٍ تكاد تشق رئتيه:

- "آخ يا مظلوم!"

......

وتلكأت المروحة وكأنها تريد أن تطيل النظر وتمسح العرق عند هذا

الوجه الأسمر.. وهذه التجاعيد الغائرة.. وأرسلت نسمةً أخيرة من هواء

عليل ثم استدارت في أسفٍ لتكمل دورتها الأبدية..

وضعفت أنفاس العجوز.. لكنهلم يشعر بأي ضيق أو اختناق.. وأخذت دقات قلبه تضعف شيئاً فشيئاً...

ورأى نفسه فوق أرض طريةٍ كالغمام... ولاحت أمامه في الضباب اللازوردي بوابة صغيرة من الفضة اشتبكت عليها أغصان اللبلاب.. وتقدم منها وكأنه يسير على الماء.. وتوقف قبالتها لكنهلم يطرق الباب..

وهمس بصوت خفيض:

- "دَگ ... دَگ .. دووگ!"

ورد صوت من وراء الباب صوتٌ خاله أليفاً.. صوت كطعم العسل الجبلي:

- "منو؟"

فأجاب بصوتلم يستطع أن يغالب تكسره:

- "آآآني!"

- "جِق فِق!"

وانفتح الباب فانهمر منه شلال من الضوء العجيب أضطر لتفاديه بيده.. يده التي لم يلاحظ أنها صارت ناعمةً.. بيضاء كالثلج... وأبعد يده رويداً ورويداً فإذا بوجهِ صبيةٍ لم يخلق الله أجمل منها..

- "يا رب العزة والجلال! أهذه أنتِ.. هذه أنتِ أخيراً! خا....."

وانفرجت الشفتان الكرزيتان عن زقزقة لذيذة:

- "هلا بيكم عيني!"

وتهدج صوتها.. ولم يعرف إن كانت تغالب ضحكة أم شهقةَ بكاء..

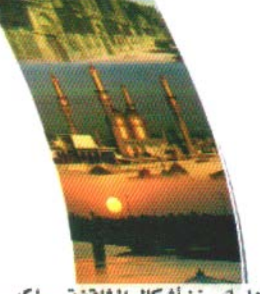
- "هلا بيكم عيني.. تفضلوا..."

وغمر الضوء والعطر كل شيء ...

٢٠٠٩/٥/١٠

المحتويات

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٣٨١ لسنة ٢٠١٠



تمثل عواصم الثقافة العربية حدثاً حضارياً هاماً يعزز أشكال المثاقفة ويؤكد حوار المعارف بين مكونات الثقافة العربية من جهة، وبينها وبين الثقافات المختلفة من جهة أخرى، من خلال الانفتاح على ثقافات الشعوب وحيواتها وأبعادها لترسيخ قيم التفاهم والتسامح وقبول الآخر، مع تأكيد الخصوصيات الثقافية للمكونات المجتمعية لما تشكله الثقافة من حضور رئيس في حياة الأمم يشكل محوراً شاخصاً للتنمية الشاملة للشعوب والمجتمعات، فهي تهدف إلى تنشيط المبادرات الخلاقة وتنمية الرصيد الثقافي وتخصيب القدرات الإبداعية والمخزون الفكري عبر توظيف الأبعاد الحضارية للمدينة المستضيفة لفعاليات (عاصمة الثقافة العربية) إذ يشكل توظيف الأنساق الثقافية أحد الوسائل الهادفة إلى تنمية (المواقع الأثرية، والمتاحف الوطنية، والمسارح القومية، والأنشطة الدينية والمراكز البحثية والحواضن الإبداعية).. ويأتي جزءا من الاستحقاقات المتوزعة على شبكة الحقول المجتمعية والبيئية والإعلامية تربوياً وجمالياً وفنياً ..

وحيث تستعد بغداد بشواهدها القديمة وملامحها المعاصرة ، فتعدُّ العدة لتحتفي في رحاب العرب بهذه المناسبة، فإنما تتحاور مع ثقافات العالم بما تمتلكه من مقومات غنية وجذور ممتدة تتداخل فيها الأزمنة بما تشكله من فصول تطبع بصماتها على الأمكنة والمثابات، بموازاة الآثار الشاخصة والوثائق الخالدة، لتتجاوز حدود الرؤية والانطواء إلى عوالم أكثر انفتاحاً وفضاءاتٍ أكثر اتساعاً .





طبع في دار الشؤون الثقافية العامة dar_ iraqculture @mocul. gov. iq
من اصدارات بغداد عاصمة الثقافة العربية baghdad 2013 @mocul. gov. iq

الغلاف : زياد طارق مجيد

السعر: ٣٠٠٠ دينار